



المثال القيمي
والتغير الاجتماعي

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (2013/12/4191)

الجبوري، شفيق ابراهيم
المثال القيمي والتغير الاجتماعي في المجتمع العراقي منذ منتصف القرن العشرين شفيق ابراهيم
عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2013

() ص

ر.أ: (2013/12/4191) .

التغير الاجتماعي // العراق // الحروب /
الخواصات:

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

Copyright ®
All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9957-572-84-6

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي وجه أو بأي طريقة إلكترونية كانت أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل و خلاف ذلك إلا بموافقة على هذا كتابة مقدماً.



دار غيداء للنشر والتوزيع

مجمع العساف التجاري - الطابق الأول

خمسوي : 962 7 95667143

E-mail: darghidaa@gmail.com

تلاخ العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله

تلفاكس : 962 6 5353402

ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن

المثال القيمي والتغير الاجتماعي في المجتمع العراقي

منذ منتصف القرن العشرين وحتى مطلع القرن الواحد والعشرين (زمن

الاحتلال الامريكي)

دراسة تحليلية اجتماعية في علم اجتماع المعرفة والمنهج الظاهراتي

(الفينومينولوجي)

د. شفيق ابراهيم صالح الجبوري

استاذ مساعد

علم اجتماع معرفة

الطبعة الأولى

٢٠١٤ م - ١٤٣٥ هـ

الفهرس

المقدمة	٧
الفصل الأول	
الإعداد الاجتماعي والبناء القيمي (المثال القيمي)	١٧
الفصل الثاني	
مسيرة الحراك الاجتماعي في المجتمع العراقي	٢٥
الفصل الثالث	
تشكيل السلوك الرمزي والمعادلة السلوكية	٤١
(الأجتماعية-النفسية)	٤١
الفصل الرابع	
العراق مطلع الاحتلال الامريكي	٥٩
الفصل الخامس	
تأطير البحث نظرياً	٩٣
الخاتمة	١٠٤

المقدمة

شهد المجتمع العراقي ضروباً من التغير عبر مسيرته الحضارية خلال القرن العشرين، ويذهب المتخصصون الاجتماعيون الى ان الزمن عامل رئيسي في حركة التغير الاجتماعي وهو ما حاولنا تتبعه خلال بحثنا منذ أواخر خمسينات القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، والتغير في خطه العام يعني حدوث اختلاف في أية ظاهرة يمكن خضوعها للملاحظة عبر أية فترة زمنية، وقد يكون هذا الاختلاف بسيطاً لا يتعدى تحويراً شكلياً سطحياً لا يلفت نظر المشاهد وقد يكون اختلافاً جوهرياً في الظاهرة التي تدرس^(١).

وهذا ما حاولنا تشخيصه في بحثنا من خلال تتبعنا شكل المثال القيمي في المجتمع العراقي ورصد بدايات التغير فيه، وقد وجد الباحث ان المثال القيمي لم يشهد تغيراً على مستوى المصادر التي استقى مبادئه منها بل انه عاد اليها مطلع الاحتلال إلا ان ذلك لا يعني ان معالم المثال كانت ثابتة، فقد شهدت تغيرات طفيفة رافقت تغيرات الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شهدتها البلد، إلا ان الذي حدث كان تطويعاً لهذا المثال كي يوافق تلك التغيرات وقد كان ميدان التطويع هذا السلوك الاجتماعي فكانت معالم تلك التغيرات اوضح في مظاهره السلوكية منها في مثاله القيمي.

وقد حاولنا استقصاء ذلك بعد تحديدنا حدود الموضوع النظرية ومنهجه العلمي وفق فصول خمسة كان اولها: بحث الاعداد الاجتماعي والبناء القيمي

(١) قيس النوري، آفاق التغير الاجتماعي في النظرية والتنمية، جامعة بغداد، ١٩٩٠، ص ١٧.

وفق آلية بناء النظرية الاجتماعية، ثم بحث مسيرة الحراك الاجتماعي في المجتمع العراقي، وكان مضمون المحور الثالث تفسير السلوك الاجتماعي وفق معادلة اجتماعية - نفسية اما المحور الرابع فقد بحث اوضاع العراق مطلع الاحتلال الامريكي وأخيراً حاول المبحث الخامس تأطير التجريب الذي استعرضه في متن البحث نظرياً، ثم ختم البحث بخاتمة وفهرست بقائمة المصادر.

حدود الموضوع النظرية والمنهج العلمي

يقول جدنز لا معنى للقول بان البناء يحدد الفعل او بالعكس^(١) ومعلوم ان هذا يمثل جهداً تنظيرياً لجدنز يهدف منه التوحيد بين النظريات الصغرى والنظريات الكبرى حيث يتحد الفعل بالفاعل، (الفعل الاجتماعي والموقف الاجتماعي) وقد اتخذ جدنز من الانشطة الاجتماعية نقطة البداية بالنسبة له، إلا انه يصر على ان تلك الأنشطة متكررة أي انها لا تظهر الى الوجود بواسطة الفاعلين الاجتماعيين ولكنها تتجدد بواسطتهم من خلال الوسائل الفعلية التي يعبرون بها عن انفسهم كفاعلين ويقوم الفاعلون في انشطتهم ومن خلالها بانتاج الظروف التي تجعل هذه الأنشطة مشتملة الحدوث^(٢).

ويمكن تلمس وحدة التحليل هنا في كون المجتمع العراقي نفسه هو ذلك المتصل ذي الطرفين المتفاعل مع بعضه في مجال حيوي اسمه التغير الاجتماعي على مر المراحل التي مر بها المجتمع "وهي حسب تصور الباحث ووفق موضوع البحث خمسة بدأت باصلاحات مدحت باشا أواسط القرن ١٩ ثم

(١) مصطفى خلف، عبد الجواد، دار المسيرة، عمان، ط١، ٢٠٠٩، ص ٤٤٤

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٥.

مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى بداية السبعينات ومن السبعينات حتى الحصار الشامل ١٩٩٠ ومرحلة الحصار الشامل حتى ٢٠٠٣ حينما دخل الأمريكان العراق واخيرا مرحلة الاحتلال الأمريكي في ٢٠٠٣" ولكل منها محدداتها الظرفية الاجتماعية والسياسية التي عملت الى احداث تغير اجتماعي في المثال القيمي السابق لها حتى اصبح هو ما يميزها عن غيرها اللاحق لها لما لحق بالأخير من محددات ظرفية جديدة ربما وهكذا دواليك انتهاءً بالمرحلة الحاضرة (الاحتلال الأمريكي) دون الوقوف عندها طبعاً.

من هنا سيكون من الطبيعي فهم حالة التغير الاجتماعي من داخل السلوك الاجتماعي أي (فهم المعنى بلغة ماكس فيبر) إذا فصلنا الشعور في التحليل الاجتماعي واعتمدنا المنهج الظاهراتي الفينومينولوجي فهو يقوم على ركنين في دراسة الفعل الاجتماعي هما: الفهم والفعل القصدي؛ والموقف الظاهراتي انما يتبلور في تصور الشعور على انه قصد متبادل يربط ما بين الفعل والتجربة حين يلتقيان^(١) ذلك ان الفعل الاجتماعي يذشاء من "دوافع داخلية أي دوافع من اللاشعور واخرى من النظام الاجتماعي"^(٢). والمنهج الظاهراتي هو ابراز لعلاقة التفاعل ما بين شعور الفرد والتصور الاجتماعي العام للمجتمع تجاه الافعال الاجتماعية، فهو ربط ما بين ذات الفرد التي تتصف بالخصوصية ذات الاساس الشعوري النابع من دخيلة الفرد، وثيقة الصلة بالعمومية الصادرة عن عقل جمعي.

(٣) ينظر قباري محمد اسماعيل، منهج البحث في علم الاجتماع، منشأة المعارف بالاسكندرية، دون تاريخ، ص ٥٧١-٥٩٤.

(١) بول لازرسفيلد، الاتجاهات الاساسية في علم الاجتماع، ترجمة د. احمد النكلاوي و د. عواطف فيصل بياري، مكتبة نهضة الشرق- القاهرة، بدون تاريخ، ص ٩٤.

يرتكز المنهج الظاهراتي على عنصر الفهم الواعي. ويمثل مفهوم (الفهم الواعي) الشعور الفردي الممتد الى شعور الافراد الاخرين بشكل نسيجي يجعل فيها الوعي، من الفهم، الارادة المعلقة للذات، فيكون وعي الباحث الاجتماعي المستخدم المنهج الظاهراتي وعياً عميقاً لانه قد ميز بين الذاتيات الفردية وادرك الفواصل بينهما كما ادرك انها قد تصبح طبقة او دولة او مجتمعاً بكامله فهي نزعة ذاتية جماعية "والنزعة الذاتية الجماعية، هي ذاتية الانسان على مستوى الكلية، وهي الصيغة المكتملة لتأكيد هذه الذاتية"^(١) فكان الفهم الواعي، فهماً يسمح بدخول الشعور الى الواقع الجمعي. وبالتالي اصبح العقل الجمعي، خارطة ذهنية يتحسسها الظاهراتي بحساسية الشعور.

ان التداخل ما بين شعور الفرد والعقل الجمعي يجعل من المنهج الظاهراتي اداة مسح للفكر الاجتماعي من خلال مبدأ الفهم الواعي الذي يمنح الباحث القدرة على التميز ما بين الفكر الاجتماعي المستند على ركائز معرفية - نظرية. وما بين الفكر الاجتماعي المستند على ركائز معرفية - تجريدية، اذ ذاك يتشكل التجريد الحي، وهو يختلف عن التجريد النظري فاذا كان الاخير يرسم صورة لمجتمع بمنظار فلسفي لا يمت الى الواقع إلا بصلة الارتباط الوصفي (الاثنوغرافي) حاملاً في طياته ابعاد المايجب ان يكون، فان الأول يجسد صورة الواقع الاجتماعي من خلال الشعور والأطار المجتمعي له، فيخوض في حيثيات دواخل النفس الفردية التي غالباً ما تميل الى التأطير والاعتماد على التبرير في تفسيراتها لسلوكها فيجيء التجريد الحي، كاشفاً هذه

(٢) مجموعة من الباحثين، دارسات مغربية، دار التنوير للطباعة والنشر، المغرب العربي، الدار البيضاء، الطبعة الاولى، ١٩٨٥، ص ١٤٨.

الصورة الذاتية للذواقات الأخرى على صعيد يكون مداه المجتمع في سلوكه الاجتماعي وإلى جانب المنهج الظاهراتي يقف منهج علم اجتماع المعرفة، وهو الآخر له ثنائية متوحدة بين المنهج والعلم كما الثنائية بين الفهم والقصد في المنهج الظاهراتي والسلوك الاجتماعي والبناء الاجتماعي حينما يتوحدان في مظهر اجتماعي واحد اسمه المجتمع اياً كان مسماه.

ان المهمة الصعبة التي تواجه العلم تتمثل بمقدار التوفيق بين منهجيته، وبين تراثه النظري ولعله لا يوجد علم مثل علم اجتماع المعرفة يتداخل تراثه النظري بمنهجيته إلى الحد الذي تجد فيه نظرية علم اجتماع المعرفة منهجاً، كما تجد منهجيته في ذات الوقت تنظيراً.

وقد حاول ايان كريب طرح نظريته الاجتماعية التي تكاد أن تكون توفيقية بين الموضوعات المبحوث من حيث المنهج ومن حيث العلم، فلا التزمت بالمنهج حيث يقول "فقد وقفت ضد أي منهج يبالغ في الصرامة، وأي محاولة لاستيعاب كل سمات الحياة الاجتماعية ضمن إطار نظري واحد وتفسير نظري واحد، وفي المقابل ذهبت إلى أن الحياة الاجتماعية تتكون من ظواهر متعددة الأشكال، وأن كل شكل منها بحاجة إلى فهم وتفسير نظريين مختلفين عن الأشكال الأخرى"^(١).

من جانب آخر طرحت النظرية فكرة الأنسنة لموضوع البحث، متجاوزة فكرة التثبيء الدوركهايمية التي تعاملت مع موضوع البحث على أنه حقيقة شبيهة طبيعية خالية من الأنسانية* وكأنها شيء خارجي، مما فسح قدرة التعامل

(١) ايان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسنز إلى هابر ماس، ترجمة: محمد حسين علوم، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٤٤ لسنة ١٩٩٩، ص ٢٣٠.

مع التنوعية المعرفية فيما يخص النظريات الاجتماعية التي تسعى لتفسير الحياة الاجتماعية من زاوية التغير الاجتماعي، بعبارة أخرى فهم الواقع باعتبار التغير الاجتماعي عاملاً محورياً في التفسير الاجتماعي خاصة وان التغير الاجتماعي "يتضمن القدرة على التعامل مع مجموعة من الاحتمالات تقبل الاختلافات القائمة بينها حتى تعارضها التام، وهذه المقدرة يمكن اعتبارها دليلاً على ان التعليم يوسع المدارك حسب القول القديم،... وبهذا المعنى فان تعلم التسامح في التفكير النظري الذي قد يقول شيئاً لا نود معرفته،... وهذا التعلم مرتبط بالوسيلة التي قد تتجاوز بها شعورنا بالخواء، اما اذا أُسيء فهم النظرية فانه وسيلة لأطالة أمد ذلك الخواء"^(١)

ان الذي يمكن استخلاصه من نظرية كريب يتمثل بما يأتي:-

١. عدم التقيد بمنهج صارم وفق قواعد العلم النظري الصارمة جداً الذي فرغ العلم من محتواه الاجتماعي، كما عدم الانجرار وراء الفوضى الى حد يملئ نتائج العمل البحثي ابتسارات ومعارف مشوهة للواقع الاجتماعي وانه منهج الوسطية العلمية - الاجتماعية.
٢. ايمان بالنسبية الاجتماعية وتعدد اشكال الحياة الاجتماعية وايمان بالنسبية المعرفية وقبول عدد من التفسيرات الاجتماعية في آن واحد، وايمان بنسبية الفهم الفردي للباحث من خلال الايمان بالتاريخ والتعدد الفكري للانا والآخر.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٣٧.

(*) أي انها مادية تخلو من العواطف والمشاعر الانسانية.

٣. تقبل فكرة التغير الاجتماعي، فما توصلت اليه من منهج وسط، ومعرفة تم التوصل اليها من خلال تفهم الآخرين قد يغير المناهج والمعارف المعتمدة.

والى جانب تصور إيان كريب تقف نظرية جدنز بشدة في الواقع الاجتماعي أنطلاقاً من تأكيداتا على متغيرات خاصة بالفرد الفاعل في المجتمع وبالواقع الذي يحدد الفاعل بعيداً عن التصورات القبلية وفق منطق الممارسة والاندماج في تفاصيل الحياة اليومية الحقيقية لا المفترضة، ولذلك فقد كان مفهوم الممارسة praxis مفهوماً محورياً في نظرية التشكيل البنائي التي طرحها فعد نظريته "هي إعادة بناء نظرية حول الذات، لا تحاول ان تحلل الذات الى ابنية لغوية كما فعلت البنيوية ولكنها تنظر الى الذات بوصفها كائناً فاعلاً عاقلاً تتحدد علاقته بالمجتمع من خلال ممارسات مستمرة بحيث يتشكل كل من الفعل والبناء في ضوء الممارسات"^(١)

ووفق ذلك فانه يمكن فهم الارتباط الجدلي بين التغير الاجتماعي وبين علم اجتماع المعرفة في ضوء تفسير كريب وجدنز لمفهوم النظرية الاجتماعية، لأن الواقع الاجتماعي وهو واقع حاصل متغير سواء كانت عوامل احتمالات التغيير ذاتية أم موضوعية، داخلية أم خارجية، وفي نفس الوقت يكون من الصعب على العلم الاجتماعي ان يتعامل مع معطيات التغير الاجتماعي على أنها متغيرات شبيهة يغيب عنها التفسير الذاتي الذي عليه أن يكون أحد أجزاء

(١) احمد زايد، آفاق جديدة في نظرية علم الاجتماع - نظرية تشكيل البنية، المجلة الاجتماعية - القومية، يصدرها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناية، القاهرة، مجلد ٣٣، ع ٢١، سنة ١٩٦٩، ص ٦٩.

الذات الفاعلة – جزء من المجتمع المبحوث. وهو في هذا، فوق الموضوعية، بأعتقاده، بقيم المجتمع الذي يبحثه، ولذلك فليس من المعقول أن يتم الفصل بين المنهج والنظرية في علم إجتماع المعرفة "لا شك أن هناك فاصل بين المنهج والعلم من غير علم اجتماع المعرفة. الا أن هذا الفاصل هو ما يغيب عن علم إجتماع المعرفة وهذه هو طرح كارل مانهايم في الايدلوجيا واليوتوبيا الذي يتبناه الباحث على أقل تقدير.

الى جانب ذلك أعتمد الباحث المنهج المقارن في دراسته لاستعراض نتائج دراسة ماجستير صدرت عن قسم علم الأجتماع في نفس العام (٢٠١٠) حملت عنوان "الحراك الاجتماعي وتداعياته على المجتمع العراقي بعد الاحتلال الامريكي بنتائج الدراسة التتابعية في مرحلة الاحتلال الامريكي وقد اقتضى هذا الامر من الباحث معالجة مفهومي الاعداد الأجتماعي والمثال القيمي من جانب وجودها التاريخي وكتوجه قيمي تقليدي حكم المجتمع العراقي ومحاولة تبني آلية تفسير اجتماعي لمجمل السلوك الأجتماعي من خلال الرمزية التي عبرت عن مراحل متباينة مر بها المجتمع، وتتبع اشكال حراكه الأجتماعي منذ ق ٢٠ حتى فترة الاحتلال الامريكي وذلك وفق تحديدنا للمباحث على النحو الذي ذكرناه في المقدمة.

الفصل الأول

الإعداد الاجتماعي والبناء القيمي

(المثال القيمي)

الفصل الأول

الإعداد الاجتماعي والبناء القيمي (المثال القيمي)

يتضمن الاعداد الاجتماعي تهئية الفرد ذهنياً، واجتماعياً ليكون شخصاً قادراً على العيش بمنطق المجتمع الذي يحتضنه، وجوهر الاعداد سلسلة من العلاقات الشخصية المتبادلة والمتشابكة^(١) التي يمثلها الشخص خلال حياته العملية، وتنطوي عملية التهيو على الاعداد المثالي، التجريدي، التي يفترض أن تنعكس في الجانب السلوكي، ويمارس المثالن دور المقياس الاجتماعي الذي تقاس به العمليات الاجتماعية، ويتحدد بموجبه تبادل العلاقات وتشابكها.

تتفاوت درجات التدخل بالنسبة للقاءمين بعملية الاعداد، بتفاوت التأثير الذي يمارسه (المثال) في حياة الشخص، فالشخص الذي تمثل المثال واندماج فيه، هو غير الشخص الذي لم يأخذ من المثال سوى الشكل.

يتضمن (المثال) محورين يكونان من التداخل والتشابك يصعب مع تداخلهما الفصل بين امتداداتها العلاقاتية وهما: طبيعة السلوك والقيم. تنقسم طبيعة السلوك الى قسمين: الاستطاعة والمعرفة وهما يعكسان مرحلتي التنشئة الاجتماعية التي يمر بها الفرد، ففي مرحلة الاستطاعة يتعلم القيم بموجب التوجيهات التي يتلقاها من الوالدين. وسمة هذه المرحلة التقبل، والقدرة على تمثل السلوك المتمخض عن قيم غايتها، والمعرفة المتضمنة لها معرفة محدودة لا تستطيع تجاوز الحدود الاجتماعية المرسومة لها، وذلك بحكم كون المرحلة

(١) اورفيل برم، التنشئة الاجتماعية بعد الطفولة، ت.د. علي الزغل، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان - الاردن، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ١٦.

العمرية التي يعيشها الفرد تتمثل بمرحلة الطفولة والشباب و هي مرحلة تعلم اجتماعي وحسب، بينما تتضمن المعرفة المرحلة السابقة بما هو متمخض عنها. ومن اضافات معرفية نظرية وعملية زرودته بها الحياة، فاصبح الشخص يتاثر الى حد ما بمواقفه اللا شعورية التي اكتسبها منذ طفولته^(١) وبذا تتميز مرحلة المعرفة بالارادة واللا شعور من خلال الاعداد الاجتماعي وبمعرفة الاجتماعية التي تتجاوز التقليد والمحاكاة الى تعديل في معايير القيم دون ان يكون هذا التعديل والتبديل خروجاً على جوهر القيمة ذاتها.

يعكس الإعداد الاجتماعي (المثال القيمي) نمط الثقافة الاجتماعية للمجتمع الذي يتولى رعايته. وهنا يجب ان نميز بين مثال قيمي رئيسي وامثلة قيمية فرعية، الاخيرة تعكس الجيوب الاجتماعية ضمن الثقافة الرئيسة ولكل مجتمع اعداده الاجتماعي الذي يميزه بما يتمخض عنه من سلوك، له اثاره في المجتمع.

ومما يميز الإعداد الاجتماعي هو الفعل المقصود الذي تقوم به الاسرة والمدرسة بشكل خاص. والفعل غير المقصود الذي تظهر اثاره نتيجة مركز الفرد ودوره الاجتماعي في مناشط الحياة اليومية. تسهم هذه العناصر الاجتماعية بتأثيراتها في توجيه الفرد وتشكل شخصيته وسلوكه. ولما كانت هذه العناصر تختلف في طبيعتها من بيئة الى اخرى فاننا نفهم من ذلك الاختلاف

(١) د. قيس النوري، ملامح الواقع الذهني في مجتمعنا، مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، العدد ٢٥ سنة ١٩٧٩، ص ٤١١.

في سلوكيات الافراد ذوي الخلفيات الاجتماعية المتباينة انه يعود الى الاختلاف في طبيعة الاعداد الاجتماعي الذي تعرضوا له^(١).

يتطابق في الغالب نمط المثال القيمي مع السلوك الذي يسلكه الشخص، ولكن في ظل الظروف الاستثنائية تستجد انماط عمل وظواهر اجتماعية جديدة تقتضي سلوكاً لم يعهده المجتمع قبلاً، والضرورة تدعو بروز (مثال قيمي) يلائم تلك الظروف. وغالباً ما يكون الظرف الطارئ قائماً على المنفعة الفردية، مبتعداً عن المصلحة العامة وتكون المدينة اكثر تقبلاً لنمو (مثال) الظرف الطارئ عن الريف. لاتسام طابع حياتها الاجتماعية أصلاً بضعف التفاعل، فيشهد الواقع الاجتماعي واقعاً ذهنيّاً ونفسياً جديداً يعتمد على منافسة الافراد بعضهم بعضاً حيث يسعى كل واحد منهم الى ارضاء تلك المعايير^(٢)، وطوال الظرف الطارئ يجعل من قيم ومعايير اعداده الاجتماعي، تماز بشبه الثبات النسبي، الذي قد يزاحم (المثال القيمي التقليدي)، وبالتالي فان اثاره ستبقى تمارس دورها بصورة جزئية على المجتمع بعد زوال الظرف الطارئ، وقد يساهم هذا باعداد جيل على اقل تقدير على نمطه، وباختصار فان وظيفة الاعداد الاجتماعي هي تحويل المادة الانسانية الخام في المجتمع الى اعضاء عاملين جديدين. ومحتوى هذه العملية يمكن اعتباره تحليلياً يشمل فهماً لكيان المراكز في المجتمع، ولمواصفات الدور والسلوك المصاحب للمراكز المختلفة في هذا الكيان^(٣).

(١) علي عبد الامير، البيروقراطية والاعداد الاجتماعي في العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧، ص ١٣١.

(٢) د. قيس النوري، ملامح الواقع الذهني في مجتمعنا، مصدر سابق، ص ٣٩٨.

(٣) أورفيل برم، مصدر سابق، ص ١١.

يرسم الإعداد الاجتماعي، الخارطة الاجتماعية للمراكز الاجتماعية، وفي ضوء استقرار عمليات الإعداد يمكن توقع مكانات الافراد الاجتماعية والمهنية، ومن طبيعة الإعداد الاجتماعي في المجتمعات الريفية والتقليدية تميزه بالاستقرار بسبب من تركيب الشخصية الريفية التي تمتاز بعمق العواطف الانساني والثقة والاعتماد المتبادل ووضوح الواجبات والادوار المطلوبة منهم مما يدعم تكامل الشخصية ويرفد اسسها الذهنية والانفعالية^(١)، بينما نلمس في الإعداد الاجتماعي للمدينة حركية، نابعة من أن ما ينظم السلوك الفردي في المدينة هي القوانين واللوائح ورجال الشرطة والمحاكم والسجون والساعة واشارات المرور^(٢)، مما يعنيه ضعف الرابطة العاطفية، وقوة العلاقة الرسمية القائمة على المنفعة الشخصية فيكون الحراك الاجتماعي في المدينة أوضح صوراً منه في الريف.

وللحروب والازمات أثر كبير في الحراك الاجتماعي، فهي كلما خلفت (مثال قيمي) جديداً فانها بالضرورة قد عملت على تغيير كثير من الاتجاهات النفسية، وما ترتب عليها من تغيير في الاتجاهات المهنية وقد شهد المجتمع العراقي نمطية ثابتة في ظروفه الطبيعية، انعكست على مثاله القيمي الذي وافق جوهره الحراك الاجتماعي المميز بالاستقرار النسبي، ومجرى تغيره كان رئيسياً، ومخططاً له، في حين كانت طبيعة الحراك الاجتماعي في ظل ظروفه الاستثنائية التي اوجدت (مثالاً قيمياً) يلائم متغيراتها المتعددة، متميزاً بالحركية، فشهد ظهور كثير من الاتجاهات المهنية، وانماط عمل، وانتقالات رأسية

(١) د. قيس النوري، افاق التغير الاجتماعي النظرية والتنموية، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٢) ينظر: د. مصطفى الخشاب وآخرون، اصول علم الاجتماع، لجنة البيان العربي، بدون تاريخ.

وافقية، ساهمت في خلق ثقافة اجتماعية قائمة على عنصر التبرير للسلوكيات الاجتماعية للأفراد.

نخلص من ذلك ان هناك جدلية اجتماعية ما بين الاعداد الاجتماعي والحراك الاجتماعي، وعلاقتها بالواقع الاجتماعي الخارجي للمجتمع، وهي تترتب ترتيباً تنازلياً او تصاعدياً في الثقافة الاجتماعية لمنطق السلوك الاجتماعي وما تستدعيه من وجود هوية معينة للحراك الذي يقتضي اعداداً اجتماعياً (مثالاً قيمياً) ينشيء الجيل.

الفصل الثاني

مسيرة الحراك الاجتماعي في المجتمع العراقي

الفصل الثاني

مسيرة الحراك الاجتماعي في المجتمع العراقي

لو درسنا التركيب السكاني للمجتمع العراقي في منتصف القرن التاسع عشر لادركنا بوضوح مبلغ تأثير القيم البدوية فيه^(١)، وان واقعه الذهني، واقعاً جمعياً، تتضاءل فيه الفردية، حتى لا نجد لها ادنى الملامح التي بدأ (نورها يبرز مع نهاية الحرب العالمية الثانية)^(٢)، ومن يذبوع توجهه الجماعي نبعت عمليات الاعداد الاجتماعي التي يمكن تلخيصها بانها كانت تحدد دورين راسيين، هما دورا الرجل والمرأة حين عظمت دور الرجل ومكانته منذ مرحلة الطفولة التي تحاول ان تجعل منه (سبعاً) على حد مقولة الورددي، وتحمله اعباء المسؤولية الاجتماعية، الامر الذي صيره ذو قيمة ايجابية؛ وقلصت دور ومكانة المرأة^(٣)، وجعلتها تابعة للرجل، فانطبعت بكونها ذات قيمة سلبية.

عكست هاتان القيمتان موقعي الرجل والمرأة، ومن خلالهما طبيعة الوضع الاجتماعي، فحظيت مكانة الرجل بالاولوية بسبب الاوضاع الحضارية التي احاطت بالعراق منذ سقوط بغداد وحتى قيام الحكم الوطني. فقد كان مجمل الظرف قائماً على اساس "العصبية" التي كان وجودها ضرورياً في سبيل

(١) د. علي الورددي، الفرصيات الثلاث حول المجتمع العراقي، جريدة القادسية، العدد ١٨٦١، ٢٢ حزيران، ١٩٨٦.

(٢) ينظر. د. علاء الدين جاسم البياتي، المرأة والتغير الاجتماعي في القطر العراقي، مجلة كلية الاداب، العدد ٢٥، شباط، ١٩٧٩.

(٣) ينظر. د. علاء الدين جاسم البياتي، المرأة والتغير الاجتماعي في القطر العراقي، مصدر سابق.

المحافظة على الكيان الاجتماعي وعملت كل قيمة على تعزيز القيمة الاخرى، بما نحمل من سلطة، تدعم مكانتها، فتمخض عنهما نمط الاستاتيكية في الشخصية العراقية، واصبح كل من الرجل والمرأة يمارس دوره على وتيرة واحدة. لقد ارتكز الاعداد الاجتماعي في المجتمع العراقي على هذا الاساس فالمظهر الأول لتاثير الاسرة كجماعة على السلوك الانساني هو دورها في تشكيل شخصية الفرد التي تمثل خصائصه وصفاته والتي تعمل على توجيه السلوك وتحديده^(١). ويعد الخروج عن النمط العام لطبيعة هذا الاعداد الاجتماعي، ضرباً من الانحراف الاجتماعي الذي لا يرتضيه المجتمع^(٢)، ولذا فقد كان الحراك الاجتماعي يتميز بالافقية والجمود، والانتقال من مركز الى مركز لا يتم الا سلفاً، ومعد له من قبل الهيئة الاجتماعية للجماعة غير الرسمية، كما راعته التنظيمات الرسمية، فمدرسة الصناعة في مدينة كركوك التي اسست في عشرينات هذا القرن، فُضِّلَ ان يحصر أمر قبول طلبتها بآباء العمال في شركة نفط العراق^(٣)، واقصى درجات الحراك الاجتماعي كانت تتمثل بالحصول على الوظيفة الحكومية، وهو امر قد ساهمت فيه الهجرة من الريف الى المدينة، فشهد المجتمع العراقي خلال اواخر العقد الخمسيني والعقد الستيني الذي شهد انتفاضات وثورات لاصلاح الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، استاتيكية في حراكه الاجتماعي^(٤).

(٤) د. علي السلمي، مقدمة في العلوم السلوكية، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٦٨، ص٢٤٨.

(٥) د. علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص٣٤٣-٣٤٤.

(١) عبد الغني الدلي واخرون، احوال العراق الاجتماعية والاقتصادية، مطبعة الزهراء، بغداد، ط١، ١٩٥٣، ص١٩٤.

(١) المصدر نفسه، ص٢٤٧.

إن التغير في المجتمع العراقي بدا منذ اصلاحات مدحت باشا، ونامق باشا، عززها الانكليز عندما دخلوا العراق وبدا العمل بنصب السكك الحديدية واستثمار النفط خلال الحرب العالمية الاولى، وقد جلبوا معهم اعدادا كبيرة من المهندسين والعمال الماهرين لانجاز مشاريعهم^(١)، وان كانت فئة العمال هم اكثر الفئات احتكاكاً بالانكليز بحكم العمل الذي ربطهم بهم، وكان لظروف الحرب العالمية الثانية والوعي السياسي والانفتاح الثقافي الذي شهدته القطر الاثر في احداث التغير في تفكير الرجل العراقي التقليدي الذي سمح للمرأة بالعمل خارج المنزل، وهو يعد من اوضح مؤشرات الحراك الاجتماعي في الخمسينات، حيث بدأت تتغير مكانة المرأة المرسومة لها سلفاً وان كان التغير في القطر لم يكن من العمق بحيث انه احدث تغيرات اجتماعية كثيفة في نظام القيم التقليدية^(٢).

وقد اظهرت دراسة عن قيم المجتمع العراقي في اواخر العقد الستيني أن هناك نوعاً من عدم الانسجام ما بين القديم والجديد، حيث بلغت نسبة ١٥% من المبحوثين من نادوا بالمحافظة على القيم الخلقية، والتقاليد والعادات الموروثة^(٣)، وهي نسبة قليلة جداً بل ان قياسها احصائياً يشير الى ان ثلاثة ارباع المجتمع العراقي ممن يؤمن بالقيم الجديدة التي جاء بها التغير، ولكن الحقيقة ان النسب ٢٨%، ٢٥.٧%، ٢١.٣% من المبحوثين كانت تؤكد على

(١) د. كمال مظهر احمد، الطبقة العاملة العراقية، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١، ص ٥٠.

(٢) د. علاء الدين البياتي، المرأة والتغير الاجتماعي...، مصدر سابق، ص ٥٥٤.

(٣) د. مسارع الراوي وآخرون، القيم الاجتماعية ومشكلات المجتمع العراقي، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٦٩، ص ٧٠.

قيم الشهامة والشجاعة والجرأة والتمسك بالشعائر الدينية والتسامح الديني والمحافظة على الشرف والغيرة والتماسك بين افراد الاسرة وسيطرة رب الاسرة، ونجدة الضعفاء وحسن الجوار^(١). وهذه القيم في مجملها قيم قبلية بدوية، ومن هنا فان الـ ٨٥% وهي النسبة المكملة لـ (١٥%) هي ممن يتمسك بالقيم التقليدية، ولعل دعوتهم الى الايمان بالتغير القيمي كان يتمثل برغبتهم في احلال قيم جديدة جوهرها القيم التقليدية نفسها، اما اشكالها الظاهرة فحديثه، كما تشير هذه الدراسة الى حالة التهيؤ النفسي لدى المجتمع العراقي لقبول التغير الاجتماعي وبالتالي الرغبة في حركية اجتماعية توفر لهم الاطمئنان الاجتماعي والاقتصادي خاصة بعد قيام الدولة بتخطيط الاطر المعروضة لهيكل الصناعة في العراق وتشديد مختلف المشاريع الصناعية^(٢)، فانتشرت القيم الاجتماعية التي تلائم الوضع الاقتصادي الجديد، واصبحت الاعتبارات الشخصية التي كانت تلعب دوراً في التركيب القروي خارج دائرة التفاعل ما دامت لا تناسب مبدأ الربح والمنفعة^(٣)، الذي اصبح من القيم الاقتصادية ذات الطابع البارز في الحياة الاجتماعية العراقية واصبحت ظاهرة الاستهلاك المظهري في طليعة المعايير الفاعلة في الحراك الاجتماعي، فهي علامات مرئية محسوسة يسهل استعمالها في التقييم الاجتماعي السريع

(١) د. مسارع الراوي وآخرون ، المصدر السابق، ص ٧١.

(٢) د. احسان محمد الحسن، التصنيع وتغيير المجتمع، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٦.

(٣) د. قيس النوري، ملامح الواقع الذهني في مجتمعنا، مصدر سابق، ص ٣٩٣.

والمباشر لتحديد مراكز الناس بحسب ما توحى به درجات السمو أو الصعود المالي^(١).

كانت طبيعة الحراك الاجتماعي خلال العقدين السبعيني والثمانيني من هذا القرن نتيجة تخطيط مدروس ومدسوب سعت له حكومة الثورة، وهو حراك قائم على اساس التحصيل المعرفي، واصبح تمجيد الذات وتعظيمها من سمات المجتمع العراقي الحديث، وان كان تمجيد الذات هذا تم ضمن اطار المجتمع وليس مفردة عنه، والحراك الاجتماعي المخطط له غالباً ما تكون انعكاساته ايجابية، ومهما تكون سمات آثاره فهي تخرج بالمجتمع من واقعه الانبي، الى افاق اوسع من البناء والتقدم الاجتماعي، فهي تخرج من حدود كونها اداة في يد القلة الى ان تصبح اداة في يد الجماهير بقطاعاتها العريضة^(٢) التي تصبغ تخطيطها بالطابع الجماعي، واضحى مبدأ المشاركة الاجتماعية من اهم المبادئ الحية التي انعكست على العلاقات التوزيعية والاجتماعية في العراق^(٣)، فالحراك الاجتماعي الذي شهده المجتمع العراقي قبل العقد التسعيني حراك مخطط له ومدروس نبع من الاعداد الاجتماعي (المثال القيمي) الذي لم يكن في جوهره سوى تقاليد وقيم بدوية تكيفت معاييرها للوضع الاجتماعي ابان النهضة الاجتماعية والعمرانية التي اخذت الدولة على عاتقها، تخطيطها، وتنفيذها، وكان التنبؤ بالمستقبل يمكن استجلاؤه بسهولة في حالة بقاء الظروف الطبيعية قائمة، فالمثال القيمي مُيسّر وينظم الافراد، وطالما اتسم الوضع الاجتماعي العراقي بالثبوت النسبي والتخطيط المدروس لتغييره وفق مبادئ

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩٣.

(٢) د. مسارع الراوي، مصدر سابق، ص ٦٣.

(٣) د. قيس النوري، افاق التغير الاجتماعي، مصدر سابق، ص ٣٦٤.

المثال القيمي، فإن التنبؤ بالمكانات والادوار اصبح امراً مفروغاً منه، من هذا المنطلق اتسم الحراك الاجتماعي خلال تلك الفترة بالقبول والرضا الاجتماعي، كما انه لم يكن في حقيقة الامر تغييراً مادياً ملموساً، وتغييراً بسيطاً على المستوى العلاقتي، يمكن ان ندعوه (التغيير البسيط) تكيفاً قيمياً استدعته الظروف المستجدة، ولعل مؤشر اختيار الزوجة يدعم مقولتنا هذه، فما زال السلوك والخلق الحسن^(١) في مقدمة معايير الاختيار، ولم يكن لبقية المعايير الاخرى من تعلم، ومستوى اقتصادي، ومكانة مهنية عالية للمرأة اية قيمة تذكر اذا ما انتفت قيمة الخلق والسلوك الحسن.

من جانب اخر اتسم هذا الحراك بطابعه المتشابك مع تغير في مكانة الشخص العلمية يصحبه تحسن في مكانتيه الاجتماعية والاقتصادية وبذا فقد خلق الحراك الاجتماعي توازناً اجتماعياً، ومن هنا جاء اختلافه عن الحراك الاجتماعي في العقد التسعيني. حيث شهد المجتمع العراقي ظرفاً استثنائياً، ترتب عليه وضع اقتصادي صعب بما فرض عليه من حصار جائر بسبب من سياسته القومية، فكان (الحراك الاجتماعي خلال هذه الفترة) حراكاً ارتجالياً احدث خلخلة في النظام الاجتماعي، وحمل قيمةً نفعية بحتة هي غير مبدأ الربح والمنفعة في الحراك الاجتماعي قبل العقد التسعيني، بحيث اصبح المردود المالي، هو المسير لطابعه العام دون ان تكون للاعتبارات الاجتماعية التي حافظت على بقائها اثر رادع في مواجهة مده.

(١) عائدة سالم محمد الجنابي، المتغيرات الاجتماعية والثقافية لظاهرة الطلاق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٣، ص ١٣٩.

سمة حراك العقد التسعيني الاجتماعي، التغيرات الاجتماعية للاندماط السلوكية، وشهدت القيم والتقاليد انحساراً، فالأخلاقية الاقتصادية لا تخضع للفكر الروحي حسبما يذكر ماكس فيبر، ذلك ان العوامل الاقتصادية والسياسية تمارس تأثيراً عظيماً على افعال الحياة لمختلف الشرائح الاجتماعية باعتبار هذه العوامل تمثل جوانب الحياة الواقعية^(١) التي تقتضي سلوكاً نفعياً، خاصة في ظل ظرف استثنائي يصبح فيه من الصعب تأمين الحاجات الاساسية.

واذا كان الحراك الاجتماعي قبل العقد التسعيني قد سار بموجب المثال القيمي بما حمله من مفاهيم اجتماعية تميزت بطابعها العاطفي التضامني، لا يلائم ثقافة المرحلة الراهنة، فغير الافراد من اتجاهاتهم القيمية في سبيل تأمين الجانب المعيشي، فتغيير الاتجاه واحلال اخر محله يتوقف على مدى التوافق بين هذا الاتجاه الجديد وباقي الاتجاهات الاخرى التي تكون التنظيم الاتجاهي للفرد^(٢)، فالظرف الاستثنائي الذي عاشه المجتمع العراقي بما صاحبه من هجوم اعلامي ضخم معادي، وسلوك فعلي سلكته القوى الامبريالية، وبما تمخض عنه من وضع اقتصادي صعب، ابرز ملامحه التضخم الاقتصادي، واصبح المعروف عن هذا الظرف انه ساهم في تغيير تفكير الفرد العراقي ولم يكن عندئذ من سبيل الاخلاق (مثال قيمي) جديد يأخذ على طابعه تسيير الحياة الاجتماعية، قام في جوهره على اساس ان المعيار المالي، والكسب الاقتصادي هو المقياس الامثل، لقياس السلوك الاجتماعي. فحل هذا المعيار محل

(١) اينوروزي، جدلية علم الاجتماع بين الرمز والاشارة، تأليف: د. قيس النوري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨، ص ٨٢-٨٣.

(٢) د. علي السلمي، مقدمة في العلوم السلوكية، مصدر سابق، ص ٢٢٧.

(الاستهلاك المظهري) الذي استخدم كمقياس للسلوك الاجتماعي في العقدين السبعيني والثمانيني.

الا ان القبول الاجتماعي لهذا المثال القيمي الجديد لم يكن مطلقاً لاعتبارين أولاً حادثته، وانه ما زال في طور التكوين، مخالفته بعض متغيرات المثال القيمي القديم، إلا ان الأخذ به لم يكن له من مَقَرٍّ فما كان من افراد المجتمع العراقي آنذاك إلا اللجوء للسلوك الرمزي ليزاوجوا ويوافقوا ما بين شكلي المثاليين القيمين وكي يمرروا ما اتفقوا عليه معنى وربما اختلفوا عليه تفسيراً أو تصوراً أو سلوكاً بحكم متغيرات عديدة ربما كانت الحاجة الاقتصادية في مقدمتها. ومعلوم عن الرموز الاجتماعية انها "تكتسب شرعيتها بمجرد ان يُعترف بها، وتفرض قوتها كسيادة تستدعي الاعتراف كحقيقة رأس المال"^(١)، او حقيقة الرموز الدينية وليست مصدر السيادة الفوقية لها، الرموز، وانما مصدر سلطتها دخولها في علاقات التوافق "وعلاقات التعارض التي تُكون منظومة العلاقات المميزة التي تحدد تشكيلة اجتماعية جديدة امتازت بالسرعة"^(٢) التي غيرت ليس امكانات الافراد الاقتصادية ومن ثم الاجتماعية وفق المقاييس العقلية او القيمية المنطقية، وانما غيرت المفهوم العلاقتي في عملية التقييم الاجتماعي، واذا كان الحراك الاجتماعي قبلاً فيه نوع من التشابك ما بين انساقه البنائية فالتحسن في المكانة الاقتصادية يرافقه بالضرورة تحسن بالمكانة الاجتماعية، فان الحراك الاجتماعي الراهن قد انطوى على نتيجة

(١) الفكر العربي المعاصر، مجلة العلوم الانسانية والحضارية، ع ٤١، سنة ١٩٨٦، مركز الأنماء القومي، بيروت؛ ببير بورديو، الراسمال الرمزي والطبقات الاجتماعية، ترجمة: عبد السلام عبد العالي، ص ٤١.

(٢) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

عكسية، فالنجاح الاقتصادي الذي حققه الفرد هنا مبتور في كثير من الاحيان عن النسق الاجتماعي فتمتع ازاء هذا الوضع الكثير ممن يحتلون مراكز اجتماعية واطنة بامكانات اقتصادية جديدة منحتم مكانة اجتماعية وليس مجرد احترام اجتماعي مصدره الاقتصاد.

يذهب علماء الاجتماع التفسيريون الى القول بان الواقع الاجتماعي لا يعدو ان يكون عملية رمزية تولده الافعال والمعاني المشتركة المنسوبة اليها وهذه العمليات الرمزية تصور ممارسات مقبولة وذات أثر فاعل في يوميات الأفراد^(١) يمكن ان تشكل هذه الافعال ومعانيها مثلاً عليا واقعية وتقويمية حسب ما يذهب الى ذلك اميل دوركهايم في المثل الواقعية يكون المثل الاعلى رمزاً للشيء على النحو الذي يجعل من هذا الشيء، أمراً، يمكن ان يدركه الفعل بينما المثل التقويمية يكون الشيء رمزاً للمثل الاعلى على الوجه الذي يجعل تصور هذه المثل أمراً ممكناً^(٢)، والاستشهاد برمز لتوضيح هذه القاعدة يظهر علاقة التصور الذهني بالموقف الاجتماعي ذي البنيتين القيمية والسلوكية، فالكرم كأحد المثل الواقعية يشكل مثلاً اعلى يشكل رمزاً للمرؤة التي هي شيء. والواقعية هنا تتمثل بالمظهر السلوكي للشيء المرموز اليه وهو المرؤة بينما المثل التقويمية، يكون المرموز اليه نفس (المرؤة) رمزاً للشيء (الكرم)، وفي هذه المثل (التقويمية) نقوم ونقيس السلوك، وفق سلوك المرموز اليه الذي اضحى رمزاً.

(١) عبد الله بن مسعود الطويرقي، مناهج البحث التفسيرية في دراسات الاتصال التنظيمي، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، ع ١٨، سنة ١٩٨٥، ص ٣٦٢.
(٢) اميل دوركهايم، علم اجتماع وفلسفة، ترجمة: د. حسن انيس، مكتبة الانجلو-مصرية القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٦٦، ص ١٦٦.

هذا التحليل الدوركهايمي للرمز الاجتماعي، شكل تصنيفاً اعتمده التفاعليين الرمزيين في تصنيفاتهم للسلوك الرمزي بكونها تجريدية او غير تجريدية، صورية، او ذات جذور اجتماعية^(١)، ذلك ان هذه الاصناف لا تخرج عن الاطار التصنيفي لدوركهايم، وهي في مجملها تصورات لمواقف اجتماعية تحمل "صفة الجودة او الرداءة والايجابية او السلبية، ويتكرر استعمالها. فتثبت هذه الصفات في عقول وافكار الافراد وتصبح وظائف اجتماعية يقوم بها اعضاء المجتمع.^(٢)

ان للرموز قواعد بنائية تتشكل في ضوءها. وقد تمثل الراي والموقف الاجتماعي. القاعدتان البنائيتان الرئيسيتان في تشكل الرمز فالتصور الذهني المقرون بالوعي لفعل اجتماعي مارس قسراً فيزيقياً او ثقافياً، (وبالاتجاه المقابل)، ان الفعل الاجتماعي ذي صفة القسر الفيزيقي او الثقافي افرز تصور ذهني مقرون بوعي اجتماعي. هذا التداخل المتعاكس للتصور الذهني والموقف الاجتماعي، حسيطة علاقة اجتماعية متمثلة بالخط الرمزي وقد شكل جزء من المعرفة الاجتماعية التي "لا تتضمن الالغاز الغامضة والاحداث غير المألوفة، بل ما هو متكرر وعام وشامل يشترك معظم الافراد في فعله"^(٣) تمخض عنه الرمز الاجتماعي الذي يعبر عن خصائص مشتركة لمجاميع هائلة من الافكار

(١) د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي، المعاصر، دار الافاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص١٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٠.

(٣) معن خليل عمر، علم اجتماع المعرفة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، ١٩٩١، ص٢٣١.

وتصبح دراسة الرمز الاجتماعي دراسة للواقع السلوكي والولوج في بحثه يعني استوضح مضامين الفعل الاجتماعي والوقوف على متغيراته.

وقد مرّ مثال الظرف الاستثنائي القيمي بمرحلتين الآراء والمواقف. فالرأي اتجه اجتماعي يتبناه الافراد لفترات قصيرة، وتعكس الشعور العام السائد، ولذلك فانها تستجيب للتغيير متأثرة بالدعاية او بالمنطق^(١). وقد امتدت هذه المرحلة خلال السنوات الثلاث الاولى من الحصار الجائر. وكانت الآراء في تغيير مستمر بين تحسن الوضع الاقتصادي و عدم تحسنه، اثناء انعقاد مجلس الامن لمناقشة موضوع الحصار، وتلت هذه المرحلة، مرحلة المواقف التي يتمثل فحواها بان الحياة القلقة تبد أنها حالة طبيعية، فلا بد من اتخاذ آراء اكثر ثبوتاً بغض النظر عما تذيبه وسائل الاعلام. تعكس اذن مرحلة المواقف الوعي باستمرارية الظرف الاستثنائي، وغالباً ما يقترن هذا الوعي بالطموح والرفض للتغييرات الاجتماعية.

فكان وعياً من واقع افضى الى تصور ذهني شكل رموزاً اجتماعية-لغوية اصبحت متداولة بين افراد المجتمع العراقي. وأخرى اجتماعية-مادية، وقامت الامثال الشعبية التي صكها المجتمع رموزاً لها دلالاتها اللغوية-الرمزية على سبيل المثال مثل [الشغل موعيب] وهو تبرير استخدم من قبل الذين يعملون بعد الدوام الرسمي خاصة الموظفين والمعلمين ويقرهم المجتمع على هذا الاصطلاح بعد ان كان العمل محظوراً على هاتين الفئتين حتى مطلع التسعينات من القرن العشرين.

(١) د. اسماعيل علي سعد، الرأي العام بين القوة والايديولوجية، ج٣، دار النهضة العربية-بيروت، ١٩٨٨، ص١٤٨.

اما الرموز الاجتماعية-المادية فبفعل الحصار لجأت الدولة الى الزراعة من أجل سد حاجتها الذاتية فقامت بتقديم الدعم لفئة الفلاحين حتى اصبح الفلاح بما يملكه من رصيد مالي رمزاً لتلك المرحلة.

اذن فقد قام عنصر الوعي لدى العراقيين بمدى المصلحة المتحققة من أي سلوك يقتضيه في سبيل تأمين الجانب المعيشي، والمصلحة شكل من اشكال الرواسب التي تلعب الدور المؤثر في عملية التوازن الاجتماعي.

تمثل الرواسب الدوافع الحقيقية للسلوك الانساني، سواء كان هذا السلوك اقتصادياً او غير اقتصادي حسبما يرى باريتو^(١)، والموقف الاجتماعي الذي يتمخض من الوعي يعكس حقيقة الراسب بجوهره من غير رتوشات اجتماعية، وليس ادل على حقيقة الموقف الاجتماعي للأفرد العراقي من سلوكه، فسلوك الشخص العراقي ضمن الفترة الراهنة سلوك مصلحي نفعي يأخذ بحسابه بالدرجة الاولى اشباع حاجاته الاولى بغض النظر عن مثاله القيمي التقليدي الذي يتعارض ومنهجه السلوكي.

يتمثل الراسب ايضا بالطموح، وخاصة بتحقيق الكسب الاقتصادي في ظل (مثال الظرف الاستثنائي القيمي) وعلى هدى معاييرهِ. أما ما نلاحظه من رفض لهذا (المثال القيمي) الذي غالباً ما يمتاز بالتجريد اللغوي وحسب، فهو ما يدعوه باريتو بالمشتقات التي هي التبريرات العقلانية والمسوغات الفكرية للسلوك الاجتماعي كي تدعم شرعيته بحيث يكون مقبولاً ومتوافقاً مع حقيقة الوضع الخارجي^(٢)، وبذا ينطوي السلوك الاجتماعي التبريري على مضموني

(١) د. احسان محمد الحسن، علم الاجتماع الاقتصادي، جامعة بغداد، ١٩٩٠، ص ٥٤-٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤-٥٦.

الرفض والتبرير. فالشخص يقوم بالفعل مدفوعاً بعواطفه، وهو في نفس الوقت يبدي رغبته في تفسير افعاله بانها حصيلة قوة المنطق^(١)، ومنطق الحاجة الملحة لدى العراقيين المتمثلة بتأمين الأمن المعيشي في هذا الظرف الذي تدفعهم دائماً الى تبني التبريرات التي يكون معظمها تعليقات مبنية على التجريب.

تضمن الحراك الاجتماعي في ظل الظرف الاستثنائي انتقالات اجتماعية سريعة سواء من ادنى الى اعلى او بالعكس. كما انه لم يحض بالقبول الاجتماعي في ظاهره العام وان تمثله المجتمع وشكل رموزه اللغوية منها والمادية-الاجتماعية وهو ما سنكتشفه في المعادلة النفسية-الاجتماعية ذلك ان المكانات الاقتصادية الجديدة لم تنعكس اهميتها الا ما تميز منها باعلى قيمة وظيفية في ضوء تشكل ثقافة جديدة^(٢).

وقد عبر عنها برمزية اجتماعية عكست في واقع الحال: واقعه الاقتصادي-المعيشي (صعب التحصيل والتأمين)، وواقعه النفسي ومن الدعم الاجتماعي الذي يطلب الالتزام ببقايا المثال القيمي القديم، والنضال برغبة او قسر لأقرار مثاله القيم الجديد.

ومن اجل استجلاء صورة العقد التسعيني وما رافقه من ظهور ثقافة جديدة كانت الى حد واضح مختلفة عن ثقافة السبعينات كما الثمانينات من هنا

(١) اينو روزي، مصدر سابق، ص ١٢٣.

(٢) جيرالد بويز، مجتمع المدينة في البلاد النامية، ترجمة: د. محمد الجوهري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ١٠١.

نجد بدأ من استعراض تشكيل الرمز الاجتماعي الذي رسخ المضمون النفسي والاجتماعي للمثال القيمي الجديد.

الفصل الثالث

تشكيل السلوك الرمزي والمعادلة السلوكية

(الأجتماعية - النفسية)

الفصل الثالث

تشكيل السلوك الرمزي والمعادلة السلوكية

(الاجتماعية - النفسية)

يمكن القول ان آلية تشكيل السلوك الرمزي تتحدد بعاملين هما التصور الذهني والموقف الاجتماعي.

١ - التصور الذهني

ليست الرموز الا تصورات ذهنية جمعت الاستولوجيا وعلم اجتماع المعرفة في ميدان البحث العلمي-الاجتماعي، واذا كانت الاستولوجيا تتدرب نفسها للبحث في صلاحية هذه الرموز، فان علم اجتماع المعرفة يتجه الى بحث الاطر الاجتماعية^(١) لها. يقول دوركهائم عن التصورات انها ظواهر واقعية ذات خصائص نوعية يتصرف بعضها بأزاء البعض الآخر على وجوه شتى طبقاً لما يكون بينها او لا يكون من خصائص مشتركة^(٢). ولا شك ان هناك علاقة جدلية ما بين التصورات الاجتماعية، والوقائع الاجتماعية او الافعال الاجتماعية. واذا كانت الافعال الاجتماعية ذات زخم كمي فان التصورات عنها، ذات طابع معنوي، تنعكس في الرموز الاجتماعية التي تجيء ممثلة لها، فالسلوك الرمزي يرمي الى تكثيف الافعال والوقائع الاجتماعية من خلال

(١) د. محمد وقيدى، ما هي الاستولوجيا، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص ٢٠٦-٢٠٩.

(٢) اميل دوركهائم، علم اجتماع وفلسفة، ترجمة: د. حسن انيس، مصدر سابق، ص ٣٨.

الادراك الذي هو تبيان للعلاقة بين الذات والغرض^(١) باتخاذ احدى الصور التي قد تكون سلوكية-فعلية او لفظية او اشاراتية او ذهنية. ان الادراك ديمومة موضوعية تعني ادراك الشيء^(٢) والديمومة تواصل معرفي بين الشخص المدرك للفعل وبين الفعل، والمعرفة لا تتشكل لو لم يكن هناك علاقة تأثير وتأثر ما بين الفعل الاجتماعي والشخص المدرك له، هذه العلاقة التاثيرية تكون من العمق والقوة حتى لتمتد من الجانب النفسي في ذات الفرد الى الصعيد السلوكي وبانقطاع هذا التواصل يتحول الادراك الى ملاحظة لا تتضمن (العلاقة التاثيرية) يبدىها الشخص ضمن اطار التفاعل الدياتي العادي خلال حياته اليومية. من ناحية اخرى في حالة انقطاع التواصل المعرفي لا تتحقق البداهة التي هي "نمط من انماط الشعور ذو تميز خاص... يعطي لنا في ذاته شيئاً من الاشياء"^(٣). فعنصرها حسب تحديد ادموند هوسرل: (الديمومة الموضوعية، والديمومة الداخلية). وهما اللذان يحققان الترابط الكامل للتفاعل الاجتماعي الايجابي منه والسلبي في حالة تفاعلها لم يحققا التفاعل.

والديمومة الموضوعية تعني الذات المعرفي للعلاقة الاجتماعية ما بين الفرد والفعل الاجتماعي، حيث ان الفعل الاجتماعي هنا يمثل حقيقة شينية لها وجودها، وتفاعل الفرد معها، يعني علاقة تحمل صفة التبادل على مستويين:

(١) ينظر. ريمون بودرن، مناهج علم الاجتماع، ترجمة: هالة شبؤون الحاج، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٧٢، ص ٢٠-٢٤ .

(٢) ينظر. ادموند هوسرل، تأملات ديكراتية، ترجمة: تيسير شيخ الارض، دار بيروت، ١٩٥٨، ص ١١٨-١٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٦.

الأول: مستوى الفكر الايجابي وانعكاسه على السلوك الاجتماعي.
والايمان الفكري لمجمل اثار الفعل الاجتماعي يحدو بالفرد الى امتثاله سلوكياً.

الثاني: مستوى الفكر السلبي وانعكاسه على السلوك الاجتماعي،
واللايمان الفكري بالفعل الاجتماعي يجعل الشخص رافضاً
الامتثال له سلوكياً وتقر العلاقة التبادلية لهذين المستويين بوجود
العقل الاجتماعي كشيء خارجي له تميز خاص.

بينما تعني الديمومة الداخلية عملية الشعور لادراك الشيء، أي تضمين
السلوك الاجتماعي شعور الفرد، أو تضمين شعور الفرد السلوك الاجتماعي.
هذا التضمين يعني العلاقة الذاتية لتفاعل الفرد بالفعل الاجتماعي، وينسحب
التضمين الشعوري فيصبح تمثيلاً بالمعنى المسرحي عند (غوفمان) وهو يتولد
عن منظومة من رسوم الى الادراك والتقدير التي تتولد بدورها عن وضعية
معينة^(١) فرضها الوضع الاجتماعي.

حالة تفاعل الشخص مع الفعل الاجتماعي اذن قد تجلت في صور
الادراك كما انها الشيء معبر عنه شعورياً. وتقوم الرموز هنا بوظيفة البدائل
للعمليات الاجتماعية التي تشكل المصدر الاساسي لعملية المعرفة^(٢). وعنصراً
البداية: (صور الادراك والتضمين الشعوري)، يحققان الوعي للفعل الظاهر
وهو مظهر معين لكل سلوك بشري يستتبع تقسيم العمل وفق رؤية (لوسيان

(١) الفكر العربي المعاصر، ببير بورديو، الراسمال الرمزي، مصدر سابق، ص ٤٨.
(٢) د. قبارى محمد اسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة، نظرية المعرفة، ج ٢، دار المعرفة
الجامعية، الاسكندرية، ط ١، ١٩٨٩، ص ١٥٤.

غولدمان^(١)، فجاء الوعي هنا نتيجة لعملية اجتماعية اقتضاها المنطق الاقتصادي، وهو تقسيم العمل، وميدان المنطق الاقتصادي هو الميدان الاجتماعي فالعلاقة ما بين تقسيم العمل والوعي المترتب عليه، هي ذاتها ميدان الفعل الاجتماعي، صيرورة التفاعل الاجتماعي، ان كل "واقعة اجتماعية هي من بعض جوانبها الاساسية واقعة وعي"^(٢) كما ان "كل وعي هو قبل كل شيء، تمثيل ملائم لقطاع معين من الواقع على وجه التقريب"^(٣). هذا يقضي الى توصيل المعرفة المتحققة عن الفعل الاجتماعي، الى اطراف التفاعل الاخرى، فيتحقق التفاعل الاجتماعي عن طريق العمليات الذهنية التي تشكل التصور الذهني حيث تتشكل التصورات الجمعية، بفعل التفاعل بين الافراد^(٤)، وهنا يظهر، كون الرمز الاجتماعي صورة جمعية تحمل صفة الاكراه كخصصة من خصائص الموقف او الواقع الاجتماعي، ونجد الافراد ازاءها امام مفترق طريقين: اما الامتثال لقانون السلوك المختزل في الرمز، او الرفض واللامتثال لهذا السلوك، ونذكر ان رفض الفرد، تأكيد لصفة الاكراه الرمزي، اذ لا يمكنه ان يرفض شيئاً غير موجود، من جانب اخر فان الرفض لا يعدو ان يكون سلوكاً سلبياً خاصة اذا كان هذا السلوك مقر من قبل المجتمع عامة.

٢ - الموقف الاجتماعي:

- (١) لوسيان غولدمان وآخرون، البنيوية التكوينية والنقد الادبي، راجع ترجمة محمد سبيلا، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص٣٣.
- (٢) لوسيان غولدمان وآخرون، البنيوية التكوينية والنقد الادبي، المصدر السابق، ص٣٥.
- (٣) المصدر نفسه.
- (٤) اميل دوركهايم، مصدر سابق، ص٥.

يعد الموقف الاجتماعي العامل الثاني (الآخر) في ظهور الرمز الاجتماعي وهو يتشكل من مجموع الافعال الاجتماعية والظروف الخارجية.

اما الافعال الاجتماعية فهي تنطوي على بعدين يتمثل الأول بالبنية القمية ويتمثل الثانية بالبنية السلوكية، تؤثر هاتان البنيتان ببعضهما وفق منطق العلاقة التأثيرية حتى "تتدامج ضمن بُنيات تحتويها وتشكلها"^(١).

وليست البنية القمية إلا ذات امتداد للتصور الذهني، وإذا كان الآخر وعياً للسلوك فان القيم هي الاطار التجريدي لهذا السلوك، فالتداخل ما بين القيم التي هي مثلاً عليا جمعية "لا يمكن أن تكون ويشعر الناس بوجودها الا اذا ارتبطت بأشياء يستطيع ان يراها الناس"^(٢)، وما بين الوعي الذهني النابع من ذات الفرد للوجود الخارجي لهذه الاشياء، هذا التداخل يرسم الطرف الأول من معادلة الفعل الاجتماعي والتي يقوم التفاعل الاجتماعي على اساسها^(٣).

بينما تكون البنية السلوكية-الاسهام التجريبي في تعزيز الفعل الاجتماعي وهي استمرار فعلي لتصور ذهني لافراد المجتمع. وجل الواقع الجمعي "ناتجاً لدوال ورموز وسلوكيات الافراد فيه"^(٤).

الفعل الاجتماعي يجري ضمن ظروف اجتماعية، يمكن ان نصطلح عليها بالظروف الخارجية، كونها تشكل ميدانياً خارجياً عن الفرد سواءً كان

(١) لوسيان غولدمان وآخرون، مصدر سابق، ص ٤٧.

(٢) اميل دوركهائم، مصدر سابق، ص ١٦٤.

(٣) ج. اسبيوف، قضايا علم الاجتماع، ت: د. سمير نعيم احمد و د. فرج احمد فرج، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠، ص ١٠٩.

(٤) حولية كلية الانسانيات، د. عبد الله بن مسعود الطويرقي، مصدر سابق، ص ٣٥٩؛ وينظر ايضاً، معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي، مصدر سابق، ص ١٩٠.

(الميدان) قيمياً ام فيزيقياً للفعل الاجتماعي، وهو لما يتعرض له من تغير قد يساهم في تشكيل الفعل الاجتماعي، وفق المتغيرات. وهو ما يذهب اليه التفاعليون الرمزيون حينما يفسرون الحياة الاجتماعية حيث يرون "بان القائمين بالفعل ACTORS يكونون ويعيدون تكوين علاقاتهم المتبادلة بصورة مستمرة، كما انهم يعدلون او يتخلون عنها تبعاً الى مقتضيات الظروف والاحوال"^(١).

يمكن القول ان حاصل تفاعل التصور الذهني والموقف الاجتماعي افضى إذن الى سلوك اجتماعي له خصائصه المميزة كظرف استثنائي.. ركائزه الواقع الاجتماعي الصعب بسبب ظروف الحصار ومضمونه النفسي كميل مستقر للاستجابة لطائفة معينة من التأثيرات على نحو معين^(٢).

و سلوكه الاقتصادي كعمل عقلاني يقوم به الفرد عند اقتناء حاجاته الضرورية الكمالية^(٣) وربما تميز سلوكه الاقتصادي احياناً في اللاعقلانية لاسباب خارجة عن ارادته على سبيل المثال شرائه البضائع ذات الفكاءة القليلة رغم علمه بذلك بسبب تدني او رخص سعرها على سبيل المثال.

(١) د. قيس النوري و دز عبد المنعم الحسين، النظريات الاجتماعية، وزارة التعليم العالي، جامعة بغداد، ١٩٨٥، ص ٢٤٤.

(٢) ادمون هوسرل، مصدر السابق، ص ١٤٦.

(٣) ج. اسيبوف، مصدر سابق، ص ١٠٥.

ان تفاعل الفعل الاجتماعي والظرف الاجتماعي يشكلان:-

(١) الاستجابة الذاتية على المستوى الفردي المتمثلة هنا بالشعور الذاتي والتي تتحول الى استجابة اجتماعية بحكم الانتظام الذهني للأفراد على مستوى المجتمع، والمتمثلة هنا بالفعل الاجتماعي.

(٢) الثقافة الاجتماعية او معرفة الحياة اليومية المتولدة عن ذاتي من داخل التنظيم الاجتماعي.

يتضح ان التفاعل الاجتماعي عملية ذات جانبيين هما الاستجابة للوسط^(١) والتاثير فيه من ناحية، ومن ثم اختزال العملية التفاعلية برموز ذات معاني اجتماعية من ناحية ثانية. وتفاعل الفعل والظروف يشيران الى اجتماعية سلوك الفرد، فالكائنات البشرية كما يعتقد جورج هربرت ميد "لا تتصرف اتجاه بعضها البعض بصورة مستقلة، لانها اجزاء من مجاميع ومجتمعات يوجد اتفاق عام بين اعضاءها حول الانجاز المناسب للدوار الاجتماعية المختلفة"^(٢)، التي، تكون من التنوع والاختلاف والكثرة، ما يكون من الصعب تمثلها جميعاً ودفعه واحدة، لذا فان الرمز الاجتماعي للنمط السلوكي جاء تكتيفاً واختزالاً لكم هائل من الانماط السلوكية، في صيغ فكرية او مادية حملت المعاني الاجتماعية التي عبر عنها الافراد في سلوكياتهم الاجتماعية.

يمكن القول ان حاصل تفاعل التصور الذهني والموقف الاجتماعي افضى إذن الى سلوك اجتماعي له خصائصه المميزة لظرف استثنائي، ركائزه الواقع

(١) د. قيس النوري و د. عبد المنعم الحسني، النظريات الاجتماعية، مصدر سابق، ص ٢٦٠.

(٢) ينظر اينو روزي، المصدر السابق، ص ١٠٠-١٠٢.

الاجتماعي الصعب، بسبب ظروف الحصار، ومضمونه النفسي كميل مستقر للاستجابة لطائفة معينة من التأثيرات نحو معين^(١) وسلوكه الاقتصادي، كعمل عقلائي يقوم به الفرد عند اقتناء حاجاته الضرورية والكمالية^(٢) وربما تميز سلوكه الاقتصادي احيانا باللاعقلانية لاسباب خارجة عن ارادته على سبيل المثال شرائه البضائع ذات الكفاءة القليلة رغم علمه بذلك بسبب تدني او رخص سعرها.

ولقد تميز السوق العراقي قبل عقد التسعين بالاستقرار والثبات بفضل السياسة الاقتصادية التي تبنتها الدولة فما متوفر في السوق كان يشبع الحاجات الاساسية، وبأسعار مساوية لمستوى الدخل.

ولم يكن اقتناء الحاجات يتم بجهود مضنية، تؤدي على خلق ميول ودوافع نفسية غير طبيعية بالنسبة للأفراد، حيث ان هذه الميول والمواقف تبرز الى السطح، في حالة بذل جهود كبيرة للحصول عليها.

ان الارتباط الحاصل بين الثبوت أو الاستقرار والتغير وصعوبة الفصل بينهما دفع ذوي الاختصاص إلى استخدام مصطلح "التوازن الحركي" للتعبير عن الازدواج بين الثبات والتغير في وقت واحد^(٣).

والمفحص للسوق العراقي اثناء الحصار الجائر، يالف دينامية التوازن الحركي، فاستقرار وثبات لفترة معينة وجيزة يعقبه تغير، وليست دواعي هذا التوازن دواعي اقتصادية بحتة، وانما دواعيه اقتصادية ممزوجة بدواعي

(١) حنا غالب، التربية المتجددة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٠، ص٤٤٦.

(٢) معن خليل عمر وآخرون، المدخل الى علم الاجتماع، جامعة بغداد، دون تاريخ، ص٢٢٢.

(٣) د. قيس النوري، آفاق التغير الاجتماعي النظرية والتنمية، مصدر سابق، ص١٦.

سياسية تختلقها الإمبريالية الامريكية، فنجم عن هذا التوازن الحركي لا استقرار نفسي لدى جميع المواطنين تجاه الوضع الاقتصادي ترتب عليه (أي الوضع النفسي اللامستقر) سلوك اقتصادي ذي تميز كفاقي بالنسبة لذوي الدخل المحدودة، و سلوك اقتصادي ذي تميز تجاري بالنسبة لاصحاب الاموال.

لقد كان من نتائج التوازن الحركي ان نجمت هوة بين ذوي الدخل المحدودة وبين ذوي الدخل اللامحدودة، وقد تعمقت هذه الهوة نتيجة طول فترة الحصار الجائر، وسعى كلا الطرفين إلى التعامل مع وضعه الاقتصادي والاجتماعي والنفسي تعاملًا قصديًا، حيث ان السلوك القصدي "ينجم عن حث داخلي نحو غاية معينة... وان كانت القصدية فيه احيانًا غير مشعور بها"^(١) فالطرف الاول سعى إلى تأمين لقمة العيش وسد الرمق، والثاني يعمل من اجل تنمية ثروته، وكلّ يسعى إلى المحافظة على وضعه لا شعورياً.

أن التغيرات المستمرة يمكن ان تؤدي إلى زعزعة الشخصية التي هي حصيلة مجموع الدوافع والانفعالات، وان كل دراسة للمحور الاجتماعي لا يمكنها ان تهمل المحور النفسي المتأطر بالجانب الشخصي.

وكان من آثار الحصار على السلوك الاقتصادي ان تشكلت معادلة سلوكية يمكن ان نطلق عليها تسمية المعادلة الاجتماعية-النفسية (مضمونها مجتمعي-شخصي).

يمكن ان نقول عندها انها في مجموعها شكلت سلوكاً رمزياً ميز عقد التسعينات لأنطوائها على مبادئ الشعور والعقل والوعي كما الموقف

(١) د. حنا غالب، مصدر سابق، ص ٣٤٠.

الاجتماعي وهي مقومات وركائز السلوك الرمزي على النحو الذي بحثنا في آلية تشكيل السلوك الرمزي.

يتميز السلوك الشخصي من كونه نابع من دخليته متجاوزاً قدر الامكان كل تفاعل اجتماعي يجنبه احراجاً اجتماعياً خاصة فيما لا يستطيع الايفاء بالتزاماته الاجتماعية بسبب عوزه الاقتصادي فيعمل أولاً على اشباع حاجاته الاساسية والأتيان بسلوك اجتماعي يتوافق ومجمل الظرف الذي يعيش فيه خاصة في المدينة التي تبرز فيها المنفعة الفردية، وهذه بحد ذاتها مشكلة كبيرة عاشها العراقي عموماً فهو من جهة محكوم بمنطق المنفعة الفردية ومطالب في ذات الوقت بالالتزام الاجتماعي. وهو موقف طبيعي على حد ما في ظل العيش ضمن المرحلة الانتقالية ما بين الحضرية والريفية التي يعيشها عالمنا العربي عموماً وهو إن كان طبيعياً بحكم المنطق الاجتماعي وان حكمه منطقة الحصار الذي أخذ يبرر لكثير من السلوكيات التي لم تعد تتلائم والمنطق الاجتماعي التقليدي، من هنا تشكل طرف المعادلة الأول الذي ينص على دور الدوافع في تحديد اشباع الحاجة ضمن ظرف معين متحرراً من متطلبات ومحددات مركزه الاجتماعي.

وكانت استجابة المجتمع إزاء السلوك الموجه تمثل الطرف الثاني للمعادلة، الاجتماعية-النفسية، وهي استجابة جبرية خارجية تأخذ هيئة التكيف الاجتماعي المتضمن عنصر التفاعل الاجتماعي، ومما يدل على (التكيف الاجتماعي) "ان البشر يميلون إلى التعامل مع الحالات المستجدة كما لو كانت تناظر، ما يقابلها من الحالات التقليدية"^(١)، ويلازم هذا التكيف صفتان.

(١) د. قيس النوري، آفاق التغير الاجتماعي النظرية والتمويه، مصدر سابق، ص ١٦١.

الأولى: تضامنية صورية.

الثانية: نفسية سلوكية.

الأولى تأخذ صيغة الرفض التضامني، معبراً عنه لفظياً، تجاه سلوك السوق فالكل يبدي عدم رضاه تجاه سلوك التجار وتجاه الباعة، وتجاه غلاء الاسعار ومن ضمن الرافضين التجار والباعة أنفسهم، وهو رفض صوري وليس فعلياً، في حين ان الثانية المتمثلة بالاستقرار النفسي تحفز الجميع سلوكياً على القيام بأنماط عمل هي عكس ما يقولون.

في صيغة تبرير لغوي وهو في واقع الحال تبرير اجتماعي اتخذ من اللغة قاعدة اساسية يؤطر بها فعله، ولغته (المجتمع العراقي) هي ليست لغة منفصلة عن الواقع الاجتماعي، بل إنها لغة تفاعل مع الموقف الاجتماعي، وتذهب إحدى عالومات اللغة الاجتماعية إلى أنه "عندما يبني متكلم قولاً يمكن أن يكون اختبار السمات اللغوية، ومشكلتها ووظيفتها مشروطاً بجملة من المعطيات غير اللسانية تلك الماثلة في الواقع الخارجي، والماثلة أيضاً في فكر المتكلم أو في مشاعره ذاتها"^(١)، وكتب باحث آخر يعزز ذلك التفاعل بين الكلمة والفعل الاجتماعي "أن استعمال شكل لغوي يحدد سلسلة من المعاني فيمكن لوضع (فوري) قبول سلسلة معاني.... وعندئذ يصفى الوضع المعاني المحتملة بالنسبة للشكل اللغوي غير تلك التي يمكن لهذا الوضع ذاته قبولها إذ يتوقف المعنى الحقيقي مع تفاعل الشكل اللغوي والوضع"^(٢).

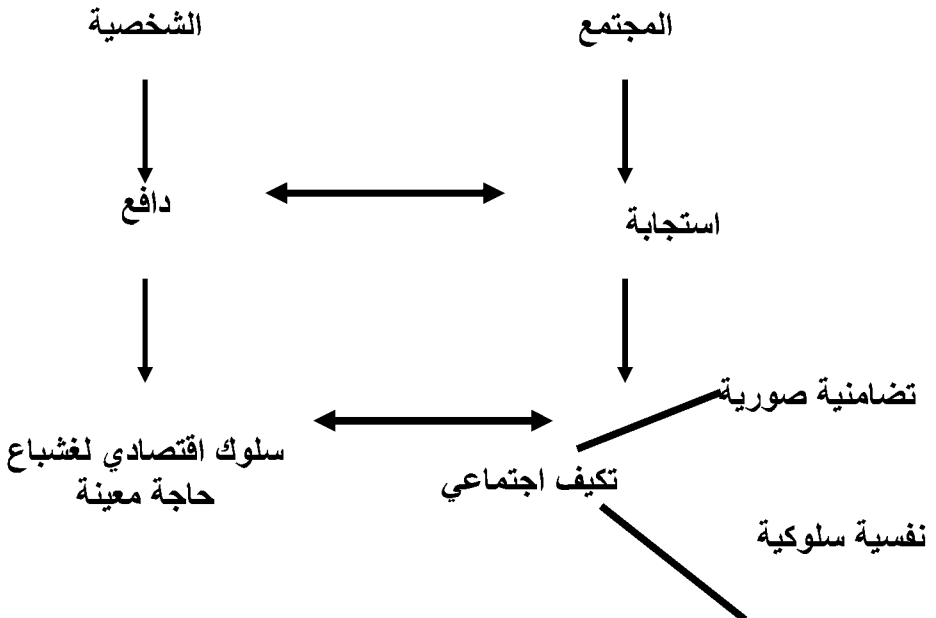
(١) جوليت غارمادي، اللسانة الاجتماعية، مصدر سابق، ص ٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.

ان تبرير مفهوم لغوي يظهر التفاعل بشكل واضح بين الاسلوب الكلامي وحاجات الناس، فحينما تستخدم مفردات التبرير كأدوات للتعبير عن معطيات الواقع الخارجي والحاجات النفسية الماثلة في نفوس الافراد القائمين بالفعل الاجتماعي يتجلى تفاعل الكلمة مع الموقف.

وحينما نفحص السلوك الاجتماعي بشكل عام فإننا نجد لا يخرج عن هذه الحقيقة ويتفق مع هذا الرأي (هالويل واريكسون) في اعتقادها بأن حقيقة الثقافة تكمن في مجال الادراك المعرفي.

لقد كشفت الملاحظة المباشرة وبالمشاركة من أن التبرير اللغوي للواقع الاجتماعي، أسلوب دفاعي يستخدمه الشخص لتحقيق الأمن النفسي، يحاول أن يتحصن به الفرد في ظل الظروف الاستثنائية التي يعيشها.
المعادلة الاجتماعي - النفسية



تكشف المعادلة النفسية- الاجتماعية في حقيقة الامر ان ثقافة المجتمع وقيمه لا تحددها البنى الهيكلية، كما لا يحددها الافراد كل على حدى بل في تكاملهما مع بعضهما، لقد اصبحنا الان مستعدين لمفهوم التشكيل البنائي الذي يقوم على فكرة مؤدها ان تشكيل الفاعلين والابنية ليسا ظاهرتين مستقلتين (أي ثانئية) ولكنهما تمثلان ازدواجية فالخصائص البنائية للانساق الاجتماعية هي بمثابة وسيلة ونتيجة للممارسات التي تنظمها وبصورة متكررة او ان لحظة انتاج الفعل هي ايضا لحظة اعادة انتاجه في سياق الاحداث اليومية للحياة الاجتماعية^(١).

وهو ما يتجلى في استجابة المجتمع ودوافع الشخصية العراقية الذي افرز تكيفاً اجتماعياً تضامنية صورة ونفسية سلوكية وفي سلوك اقتصادي لا شباع حاجة ترتب عليه ممارسات وسلوكيات اجتماعية حاولت ان تتبنى ابذية قيمية هي ليست من انتاجه الكلي ولكنها اكتملت به فعبر عنها نمطياً بسلوكه الاجتماعي فكانا كلاهما واحداً الفرد يتصرف ليشبع حاجاته وبالمقابل المجتمع يبرر تلك السلوكيات.

ولما كانت الخبرات الاجتماعية أو السلوك عموماً يعمل على دعم وتحقيق استجابة للمواقف الاجتماعية والنفسية فان توكيد هذا السلوك هو دعم للبناء الاجتماعي ولكن مما يلاحظ على صعيد الظروف الاستثنائية أو الحرجة "إن الخبرات إذا حصلت قبل أو بعد هذه الفترات الحرجة، اضعف التأخر أو التقدم الاستجابة المرغوب فيها أو ابطؤها"^(٢) وفي هذا إضعاف لانساق البناء

(١) مصطفى خلف، مصدر سابق، ص ٤٤٧.

(٢) د. حنا غالب، مصدر سابق، ص ٢١٧.

الاجتماعي، ومن هنا فإن دراسة الخبرات الاجتماعية المتولدة أثناء هذه الظروف يؤدي بنا إلى تشخيص أنماط سلوك هذه الظروف.

وعند تجوالنا في الاسواق الشعبية القريبة من البيوت السكنية، وعند مرورنا بالطرق العامة نرى هنا وهناك باعة المفرد، منهم من افترش الارض وراح يدلل على بضاعته، ومنهم من اقتنى عربية صغيرة أوقفها محاذة الطرق الرئيسية حتى كانت هذه الظاهرة تبدو مألوفة للعامة، وفي حال عودتنا لواقع المجتمع العراقي قبل العدوان الثلاثيني أي قبل الحصار الجائر نلاحظ أن ظاهرة البيع المفرد كانت حصراً على اصحاب الدكاكين، وقلما تجد بائعاً مفرداً يبيع من بيته أو تجد صاحب عربية متجولة، كما نلاحظ ان هذا العمل ان وجد فقد كان حصراً على فئات محددة في المجتمع تمتاز بالفقر المدقع وهي قليلة جداً نظراً لمتانة الوضع الاقتصادي والرخاء المعيشي الذي وفرته حكومة الثورة.

أما أثناء الحصار فان شيوع هذه الظاهرة يمثل استجابة لمستجدات وضع جديد، وهو يمثل طرف المعادلة الثاني (الشخصي) من اجل تحقيق الأمان النفسي بوجود مصدر رزق ثان يضاف على مصدر الدخل الاصيل الذي لم يعد يفي بغشباع الحاجات، وتمثل حالة القبول الاجتماعي لهذه الظاهرة استجابة نفسية لكل فرد تأخذ شكل مقياس اجتماعي لطبيعة المحددات الثقافية لهذه المرحلة، مشكلة بذلك طرف المعادلة الأول (المجتمع).

وبامتثال الفرد ورفضه يشكل تفاعلاً اجتماعياً رمزياً والتعامل مع الرمز بصفة الامتثال يزيد من تعميقه، واللامتثال يزيد من اعطائه صورته وشكله لانه يجعل منه (الرمز) طرفاً في معادلة المقارنة، وهذا يعني الاعتراف بكونه يشكل جزءاً مستقلاً له ابعاده المميزة.

وهذا يكشف عن تحقق للوعي بالظرف الاجتماعي فيتحقق بذلك التفاعل الاجتماعي وفق الادراكات والقناعات المعرفية لطبيعة السلوك الاجتماعي فيتحقق عندئذ الحكم القسدي المتضمن في معنى المفكر به عن طريق تمثّل الادراكات التي انضجها الوعي وعكسها سلوكياً في الواقع الاجتماعي، واشكال الوعي مرتبط "بمحتوى التجربة والتجارب هي توجيه الانتباه نحو اشياء حقيقية كانت أو خيالية، مادية أو مثالية، وكل هذه الاشياء تكون مقصودة" (١) فيتسنى للأفراد ادراك السلوك من خلال رمزيته "ومعنى ذلك ان هناك مواقف تثير الفكر الانساني من ناحية كما ان هناك من ناحية اخرى استجابات جاهزة من السلوك وانماطاً سابقة من الفكر بفضلها يستطيع الانسان ان يواجه تلك المواقف خلال حياته الاجتماعية" (٢) هذه المواقف استناداً الى رأي التفاعليين الرمزيين (٣) بحكم تكرارها وترسخها في ذهن الافراد تكون الاساس في تشكّل الرمز الاجتماعي الذي يصبح ممثلاً لها (المواقف الاجتماعية) حاملاً معانيها المتعددة، وجهد العقل الاجتماعي الجمعي في تنظيم هذه المعاني المستحصلة من التجربة هو من جانب اخر ظاهرة مكملّة لعملية الادراك (٤)

استتبع هذا النشاط الذهني، تشكّل التصور الذهني الذي جاء نتيجة ادراك ووعي من قبل الافراد للسلوك الاجتماعي، وهو لم يكن تصور ميتافيزيقياً، وانما تصور واقعي للافعال الاجتماعية التي مارست قسراً فيزيقي أم ثقافي،

(١) المجلة الجزائرية للاتصال، د. عبد الرحمن رمزي، مصدر سابق، ص ١٣٩.

(٢) د. قبارى محمد اسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة، مصدر سابق، ص ١٤٨.

(٣) ينظر: د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، مصدر سابق، ص ١٨٩-١٩٠.

(٤) جون جاردنز، تجديد الذات، ترجمة احمد حمودة، دار الكرنك للنشر، ١٩٦٧، ص ١١٨.

هذا التصور يعد العامل الاول من العوامل بزوغ الرمز الاجتماعي في الحياة الاجتماعية.

طبيعي ان تتفاوت ثقافات الافراد المعرفية بمستوياتهم الاجتماعية، وان كانت تحكمهم قيم حضارة المجتمع الواحدة، الا انه بفعل التفاوت يكون التعبير عن الحقيقة الاجتماعية متبايناً كل فئة او شخص ينظر اليها من زاوية ثقافته الفئوية او الشخصية، ويكون التوفيق بين وجهات النظر المتباينة من خلال التدميط الرمزي للسلوك الاجتماعي الذي يجعل بالامكان التبادل الاجتماعي وانسيابية المعاني الاجتماعية، ذلك ان الرمزية سمة اساسية لا يستطيع البشر الاداء بدونها حتى عندما لا يكونون على علم او وعي بالقوانين الرمزية لنشاطهم الذهني حسبما يرى ليفي شتراوس^(١).

ان الكثير من الظواهر التي افرزها الحصار ليست إذن سوى مركبات ثقافية مرحلية ارتبطت بالاتجاهات الذهنية من سياسية الى اقتصادية الى اجتماعية افرزها الظرف الاستثنائي في صيغ رمزية عمل المجتمع على اقرارها لاشباع حاجات استجدها الظرف الاستثنائي، فحاول بناء مثاله القيمي الجديد الذي لم يدم طويلاً بسبب احتلال البلد من قبل امريكا في ٢٠٠٣/٤/٩.

(١) اينو روزي، مصدر سابق، ص ١٦٤.

الفصل الرابع

العراق مطلع الاحتلال الامريكي

الفصل الرابع

العراق مطلع الاحتلال الامريكي

لقد عانى العراقيون من الحصار الذي استمر ما يزيد على العقد أشد العناء خاصة منه الضنك الاقتصادي وشحة المواد والأدوى من ذلك الحالة النفسية السيئة ولقد نجح الحصار حقيقة في زعزعة الثقة بالنفس بالنسبة للعراقي على العموم وقد تمخض عن كل هذا تغييراً في المعرفة الاجتماعية انعكست بدورها في البناء الاجتماعي للمجتمع العراقي فما كاد القرن الواحد والعشرين يدخل حتى حتى شنت الولايات المتحدة هجوماً الهامجي فسقط العراق في ٢٠٠٣/٤/٩ وقد احدث ذلك تغييراً كبيراً في خارطة السياسية والاقتصادية والثقافية ولم تكتفي الولايات المتحدة بهذا فقط بل سعت الى اقرار تغييرات في التركيبة الاجتماعية والديموغرافية.

ووضح منذ الايام الأولى للاحتلال انه باقٍ لفترة ليست بالقصيرة وانه سيعمل بما لا يقبل الشك على احداث تغيير في الفكر الاجتماعي العراقي.

وكانت مشكلة دراسة التغير الاجتماعي بعد مضي أكثر من سنة وبشكل متابعي لمدة ثلاث سنوات فكرة وجدها الباحث طيبة من باب توثيق للفكر وللموقف الاجتماعيان في العراق وبالتالي تعد دراسة توثيقية في مرحلة من اصعب مراحل حضارة المجتمع العراقي وبالتالي حضارة الامة العربية في الوقت الحاضر.

ونظراً للظروف الامنية والسياسية والاجتماعية الصعبة التي عاشها العراق مطلع الاحتلال فقد ارتأى الباحث القيام بدراسة التغير الاجتماعي على

عينة من المجتمع العراقي ولان فكرة الدراسة كانت القيام بدراسة التغير الاجتماعي بطريقة تتابعية فقد اقتضى الامر الاعتماد على عينة ثابتة دون سواها فلجأ الى تحقيق ذلك الى طلاب القسم الذي ينتسب له، فقام بتوزيع الاستمارة الاستبائية في نهاية كل سنة دراسية أثناء فترة الامتحانات النهائية وقد كان لذلك دواعي منها :

١. أن مصدر الأجابات يكون ثابت مما يعطيها مصداقية، فيما لو كانت الأجابات قد جاء من مصادر متباينة

٢. وحدة البنية الذهنية على الأقل في المستوى الدراسي مما يعطي انسيابية في الأجابة.

٣. توزع الطلبة بشكل جيد على جميع مناطق مدينة الموصل بجميع مستوياتها الشعبية والمتوسطة، ومن خارج الموصل أقضية ونواحي، ناهيك عن طلاب المحافظات فقد كان هناك طلاباً من بغداد وديالى وكركوك والانبار.

بلغت عينة البحث ٢٤ مبحوثاً. وفي واقع الحال ان هذا العدد لم يكن نفسه خلال سنوات البحث المتتابعة. ذا بلغ عددهم في العام الدراسي ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ ٣١ طالباً (مبحوثاً).

وفي العام الدراسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ تم توزيع الاستمارة فأتضح أنه قد نقل طالب واحد الى جامعة أخرى واستشهد آخر، وترك الدراسة ثالث، قتم استبعاد ثلاث استمارات بطريقة عشوائية من عدد استمارات العام الدراسي

٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ البالغ عددها ٣١، فاصبح عدد الاستثمارات الاستبائية للعامين الدراسين ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ - ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ ٢٨ استثمارة.

وفي العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ تم توزيع ٢٨ استثمارة استبائية، استلم الباحث منها ٢٤ استثمارة، اذ أن ثلاثة طلاب لهم تركوا الدراسة بعد منتصف السنة بسبب الازدحام الامنية، والاستثمار الرابعة كانت فارغة، فتم اعتماد ذات الطريقة الأولى باستبعاد ٤ استثمارات بطريقة عشوائية للعامين الدراسين ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ و ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦، ليصبح عدد الاستثمارات لجميع الاعوام الدراسية ٢٤ استثمارة وقد تم اعتماد طريقة الاسقاط العشوائي لغرض فني بحث من أجل تحقيق الدقة الاحصائية في نتائج النسب المئوية.

كما اعتمد الباحث الاستثمار الاستبائية كأحد أدوات البحث الرئيسية، وبعد اجراء الاستثمار الاستطلاعية تم اعتماد الاستثمار النهائية، وقد تم عرضها على جميع اساتذة قسم علم الاجتماع - جامعة الموصل - كل من يحمل لقب مدرس واستاذ مساعد.

وقد ارثى الباحث حذف محور البيانات الاساسية من الاستثمار، اثناء التحليل، اعتقاداً منه باهيمية التعاضي عن جميع الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية والايكولوجية من التحليل والاكتفاء بمتغير واحد - هو عراقيتهم - وأخضاع تصوراتهم لتحليل المحاور انطلاقاً من ذلك.

وربما كان دافع العلم هو السبب في هذا الاستبعاد لتجاوز ما أفرزه الاحتلال من بعض الحساسيات فيما بين الاقليات أو المذاهب، كما لا يخفى دافع المواطنة العراقية في ذلك.

ان المجتمع العراقي شان كل مجتمع يتشكل من انساق اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وثقافية، زاد عددها عن ذلك أو نقص، اتخذ مسميات غير هذه المطروقة او لم يتخذ، تبقى الحركة الاجتماعية تسير ضمنها، معبرة عن نفسها في أنمطة ذهنية، تعبر عنها بالمفردة اليومية وبالسلوك الاجتماعي الرتيب لكل فرد خلال يومه الذي يفتحه ويختتمه بالفراش ليستجمع قواه لليوم التالي.

وهذا ما سيكشفه تحليل محاور البناء الاجتماعي للمجتمع العراقي أثناء تحليل إجابات المبحوثين على الاستمارة الاستبائية وعلى النحو الآتي :

المحور الاجتماعي

شهد المجتمع العراقي تغييراً سياسياً عسيراً كانت القسرية صفته الأولى بكل مداليلها النظرية والعملية ولقد وجد المجتمع العراقي نفسه أمام هذه القسرية امام مفترق طرق، المقاومة، أو الاستسلام، رفض الذي جرى، أو الرضوخ له، أمام هذه المفترقات تسربت عمليات التغير الاجتماعي في بنية العلاقات الاجتماعية العراقية، ولعل ملاحظة الجدول رقم (١) توضح لنا طبيعة هذا التغير، الذي بدأ وكأنه تغييراً كان من نتاج الفكر الذي افرزه الاحتلال وقد كان حسبما يوضحه الجدول متماشياً وطبيعة الفكر الاجتماعي لبنية المجتمع العربي فشهد تغيراً طفيفاً خلال السنة الثانية (٢٠٠٥ / ٢٠٠٦) من سنوات مدة البحث التجريبية وعلى النحو الآتي :

جدول رقم (١)

يوضح تغير بنية العلاقات الاجتماعية العراقية

المتغير	طبيعة العلاقة ٢٠٠٥/٢٠٠٤		طبيعة العلاقة ٢٠٠٦/٢٠٠٥		طبيعة العلاقة ٢٠٠٧/٢٠٠٦	
	قوية		ضعيفة		قوية	
	نسبة		نسبة		نسبة	
	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة
الاسرة	٢١	٨٧,٥	٣	١٢,٥	٢٢	٩١,٦
الاصدقاء	١٥	٦٢,٥	٩	٣٧,٥	٢١	٨٧,٥
المحلة	٧	٢٩	١٧	٧١	٤	١٦,٦
المدينة	٦	٢٥	١٨	٧٥	٣	١٢,٥

أ - على مستوى علاقة ابناء الأسر بأسرهم شهدت تلك العلاقة مذحى تصاعدي ففي العام الدراسي (٢٠٠٤ / ٢٠٠٥) إذ كانت درجة علاقة الأبناء بأسرهم قد بلغت ٨٧,٥% من القوة مقابل ١٢,٥% من الضعف نجدها قد

توثقت في العام (٢٠٠٥ / ٢٠٠٦) فبلغت ٦,٩١% مقابل ٨,٨% من الضعف في حين كانت في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ (١٠٠%) من القوة.

ولعل التفسير الاجتماعي لهذا الأثراد مصدره ادراك ابناء المجتمع العراقي، بقيمة الالتزام القرابي في ظل غياب الطمأنينة المفقودة في المؤسسات الردعية (الضبطية) التي من شأن ايجابية دورها الوظيفي، تقليل الارتباط العائلي حيث يعتمد أبناء المجتمع عليها في الشعور بالطمأنينة، أما وقد ضعف دورها، فقد أنكفأ الافراد الى أسرهم، وعلى ذلك، كلما زاد دورها الايجابي ضعف دور العائلة في هذه الناحية والعكس صحيح، الا ان هذا الغياب جعل الافراد يدركون قيمة ارتباطهم بالعائلة، خاصة وان هذه المؤسسات قد عجزت خلال ثلاث سنوات عن تحقيق شيء من الامن على اختلاف مستوياته.

ب - على مستوى علاقات الصداقة كان العام ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ نقطة انخفاض في مستوى العلاقة اذا بلغت قوتها حسب راي المبحوثين ٥,٦٢% مقابل ضعفها الذي بلغ ٥,٣٧% ازاء زيادتها في العام ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ التي بلغت بدرجة ٥,٨٧% مقابل ٥,١٢% ولعل تراجع النسبة خلال العام الاخير اذ كانت من القوة ٧٥% مقابل ٢٥% من الضعف من مدة البحث مرجعها، تردي الحالة الأمنية مما لا يسمح بخروج الأصدقاء مع بعضهم البعض ومن ثم تحديد نشاطهم الترفيهي.

وقد كان لشدة الاعلام والحملات العسكرية التي قامت بها قوات الاحتلال والشرطة هي السبب في ارتفاع نسبة قوة العلاقة بين الاصدقاء عام ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ الى ٥,٨٧% مقابل ٥,١٢% مما سمح بهدوء نسبي ساعد على توثيق علاقات الصداقة حيث امكنهم البقاء متأخرين نسبياً في المساء،

وإقامتهم حفلات ترفيهية، إلا أن فشل تلك الحملات، ساعد على تردي الأوضاع ومن ثم فرض حظر التجوال الذي حد من حركات الشباب العلائقية مع بعضهم البعض.

ت - أما العلاقات الإجتماعية على مستوى المدلة والمدينة فكان جد طبيعي في ظل ظروف سوء الأوضاع الأمنية وفرض حظر التجوال أن تضعف العلاقة بينهما وهذا وفق النسب المذكورة في الجدول رقم (١) إذ بلغت قوتها ٢٩% مقابل ضعف الارتباط الذي شكل ٧١% بالنسبة للمدلة و ٢٥% مقابل ضعف الارتباط الذي شكل ٧٥% بالنسبة للمدينة في العام ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥، وتدني العلاقة بين ابناء المجتمع والمدلة في العام ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ الى ١٦،٦% مقابل ضعف العلاقة التي شكلت ٣،٨٣% اما على مستوى المدينة فقد أنخفضت نسبة الارتباط الى النصف إذ انخفضت الى ٥،١٢% مقابل ضعف في العلاقة بلغ ٥،٨٧% .

ولم يكن العام ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ بأفضل من سابقه سوى ارتفاع بسيط في مستوى العلاقة بالمحلة إذ ارتفعت قوة العلاقة الى ٥،٣٧% مقابل ضعف في الارتباط بلغ ٥،٦٢% وهو لا يعد تحسناً حقيقياً ربما مصدر قوة العلاقة الاجتماعية الموجودة أصلاً قبل الاحتلال الذي حد منها كبيراً، أما على مستوى المدينة فقد استمرت نسبة ضعف العلاقة بالهبوط إذ بلغت قوتها ٣،٨% مقابل ضعف العلاقة التي بلغت ٦،٩١%.

ث - على مستوى زيارة الأقارب والمشاركة في النشاطات الاجتماعية الرسمية نجد أن السنوات الدراسية الثلاث قد شكلت حرف U حسبما يوضحه الجدول رقم (٢)

جدول رقم (٢)

يوضح زيارة الاقارب

٢٠٠٧/٢٠٠٦				٢٠٠٦/٢٠٠٥				٢٠٠٥/٢٠٠٤			
لا يزور		يزور		لا يزور		يزور		لا يزور		يزور	
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار
٨,٣	٢	٩١,٦	٢٢	١٦,٦	٥	٨٣,٨	٢٠	٨,٣	٢	٩١,٦	٢٢

فبعد أن كانت في العام الدراسي ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ قد بلغت ٦,٩١% ممن يزور مقابل ٣,٨% ممن لا يزور، نجدها قد أنخفضت نسبياً في العام الدراسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ الى ٨٣,٨% ممن يزور مقابل ٦,١٦% ممن لا يزور ونجدها ارتفعت تماماً في العام ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ الى ذات النسبة في العام الدراسي ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥.

ولعل السبب في ذلك كان التحسن النسبي في العام ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ مما سمح بتوسع العلاقات بين ابناء المجتمع الى خارج النطاق القرابي الى نطاق العلاقات الى مستوى المحلة والمدينة حينما تم توضيح ذلك في بيان مستوى علاقة الابناء بالمحلة والمدينة للعام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ من الجدول رقم (١).

وذات الرؤية التحليلية تتسحب على المشاركة في النشاطات الاجتماعية الرسمية، حيث مال ابناء المجتمع الى استغلال فرصة التحسن في الظروف

الأمنية لتوسيع النشاط الى المجالات الاجتماعية غير الرسمية فأخفضت نسبة المشاركة الاجتماعية الرسمية الى ٨,٣٣% ممن يشارك مقابل ٦,٦٦% ممن لا يشارك في العام الدراسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ مقابل نفس النسبة التي كانت المشاركة الاجتماعية الرسمية أكبر نسبياً في العامين الدراسيين ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ حسبما يوضح ذلك الجدول رقم (٣) وقد بلغت ٥,٣٧% ممن يشارك مقابل ٥,٦٢% مما لا يشارك.

جدول رقم (٣)

يوضح المشاركة في النشاطات الاجتماعية الرسمية

٢٠٠٧/٢٠٠٦				٢٠٠٦/٢٠٠٥				٢٠٠٥/٢٠٠٤			
لا يشارك		يشارك		لا يشارك		يشارك		لا يشارك		يشارك	
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار
٦٢,٥	١٥	٣٧,٥	٩	٦٦,٦	١٦	٣٣,٣	٨	٦٢,٥	١٥	٣٧,٥	٩

وعند التمعن في نسب التحسن في العام الدراسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ لا نجدها تشكل تحسناً كبيراً اذ لم يكن ذلك التحسن حقيقياً بقدر ما كان تحسناً اعلامياً، وهذا هو السبب الذي يفسر الانكفاء الى مستوى العلاقة في العام الدراسي السابق واللاحق لهذا العام الدراسي.

ج - على مستوى التفكير بالمستقبل. ويكاد أن يشكل التغير في التفكير بالمستقبل، المجال الأكثر وضوحاً في التغير الاجتماعي حسبما يوضح ذلك الجدول رقم (٤)

جدول رقم (٤)

يوضح تفكير أبناء المجتمع العراقي في المستقبل

٢٠٠٦ / ٢٠٠٧		٢٠٠٦ / ٢٠٠٥				٢٠٠٥ / ٢٠٠٤			
يفكر		لا يفكر		يفكر		لا يفكر		يفكر	
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار
١٠٠	٢٤	٨,٣	٢	٩١,٦	٢٢	١٢,٥	٣	٨٧,٥	٢١

اذ جاءت النسب في التفكير بالمستقبل تصاعدية، فبعد أن كان التفكير في المستقبل قد بلغ ٥,٨٧% مقابل ٥,١٢ ممن لا يفكرون في العام الدراسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٤ نجدها قد تصاعدت في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٥ الى ٦,٩١% ممن يفكرون مقابل ٣,٨ ممن لا يفكرون، بل أن نسبة التفكير في المستقبل قد بلغت في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ (١٠٠%).

ومرد ذلك، تحسن الوضع المالي للموظفين وقد ضاعفت الحكومة مستوى أجور موظفيها، مما ساعد على تحسن ملحوظ في مستوى الدخل، فاتجهت الأنظار الى الوظائف الحكومية، التي تتطلب بالنتيجة تخصصات علمية، فما كان من أبناء المجتمع الا التفكير في المستقبل هذا من جهة.

من جهة أخرى فإن ما هو واضح ضعف التوجه الاشتراكي لمخططات الحكومة، ومحاولة توجيهها المشاريع الرأسمالية من خلال طرح برامج الخصخصة ولو على الصعيد الاعلامي. فأصبح ذلك مؤشراً دق اذهان ابناء المجتمع بضرورة التفكير بالمستقبل والتحوط لظروف مالم يعهده، الا أنهم يسمعون به.

المحور الاقتصادي

الاقتصاد ركن الحياة الاكثر واقعية والذي يفرض فلسفته على الواقع الاجتماعي من غير رتوش ايدلوجية أو سياسية فهو ان كان ذو طابع يتخذ من نظرية التحديث أم نظرية التبعية محوراً، الا أنه يظل رغم كل شيء له واقع ملموس يتمثل بالحاجات على انواعها، وهي بحاجة لأن تشبع بواسطة الاقتصادي الذي يحس به ابناء المجتمع، ومعلوم أن الطابع الاشتراكي للاقتصاد العراقي النشط خلال عقدي السبعينات والثمانينات الذي اعتمد التنمية الشاملة ١ بدأت تضعف منتصف الثمانينات في القرن الماضي حتى كادت أن تتلاشى مع نهاية التسعينات بفعل الحرب العراقية – الإيرانية، وآثار الحصار الاقتصادي الذي بدأ تطبيقه أوائل التسعينات، بل أننا نجدها قد تلاشت مع دخول الاحتلال الأمريكي مطلع القرن الواحد والعشرين ولذلك فقد اخذ الاقتصاد المخطط يغيب عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع العراقي، فكان من الطبيعي ان يثار السؤال الاكثر اهمية على مستوى الحياة الواقعية – الشعبية، وهو هل يهم

(١) ينظر محمد مهدي صالح الراوي / التنمية المكثفة المتوازنة ومسألة البناء الاشتراكي في الوطن العربي في الثمانيات / المجلة العربية لعلم الاجتماع المجلد ٢ العدد ٤ تموز - يوليو ص ١٧ - ٣٦ .

الوضع الاقتصادي أبناء المجتمع، الا أن التساؤل لم يكن ذا طابع تنظيري على مستوى السياسة الاقتصادية، فذاك عمل الدولة التي يقف الفرد امامها عاجزاً، بل لا توجد جدوى من هكذا سؤال لبلد يخضع لذير الاحتلال، فكان طابع السؤال شعبياً بمقدار ما يهم أبناء المجتمع.

ويطرح الجدول رقم (٥) السؤال هل يهتم أبناء المجتمع بالوضع الاقتصادي

للبلد

جدول رقم (٥)

يوضح اهتمام أبناء المجتمع العراقي بالوضع الاقتصادي للبلد

٢٠٠٧/٢٠٠٦				٢٠٠٦/٢٠٠٥				٢٠٠٥/٢٠٠٤			
لا يهم		يهم		لا يهم		يهم		لا يهم		يهم	
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار
١٢,٥	٣	٨٧,٥	٢١	١٢,٥	٣	٨٧,٥	٢١	٦٢,٥	١٥	٣٧,٥	٩

وبتفحص نسب الجدول اعلاه يتضح ما يأتي:

أن نسبة المهتمين من المجتمع بالوضع الاقتصادي قد بلغت ٥,٣٧% مقابل ٥,٦٢ لم يهتموا وذلك في العام الدراسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٤ مقابل زيادة ملحوظة في الاهتمام في العامين الدراسيين ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ و ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ اذ بلغت ٥,٨٧% ممن اهتم مقابل ٥,١٢ لم يهتم.

والتفسير الاجتماعي لذلك إن المجتمع العراقي كان أكثر اهتماماً بما آل إليه البلد عقب الاحتلال، إلا أنه وبعد مضي السنتين الأوليتين من الاحتلال، وازاء التخطيط والحاجة لاقتصاد ينهض على قدميه نجد أن أبناء المجتمع قد ارتفعت درجة اهتمامهم بالوضع الاقتصادي.

ومما يجدر الانتباه إليه أن الاهتمام الاقتصادي للمجتمع، كان اهتماماً فردياً، فلم يكن المحتل ليهتم بحال البلد الاقتصادي بأي حال من الأحوال، بل إن السوق العراقي أصبح مفتوحاً دون رقابة ضريبية أو نوعية^١ * لاي من البضائع التي تدخل البلد من الدولة ولما كان الوضع المالي قد شهد تسحناً ملحوظاً، فقد اتجه المجتمع الى الاهتمام بالمتعلقات الاقتصادية وقد اخذت شكلين :

١ - اقتناء المصنوعات التقنية

٢ - زيادة النشاط التجاري مع دول الجوار

وقد سمح كل ذلك بتوفر السيولة النقدية لدى أبناء المجتمع فأدى ذلك الى ازدياد الاهتمام بتقديم المساعدات المالية للاقرباء حسبما يوضح ذلك الجدول رقم (٦)

(*) المقصود بالنوعية الجودة حيث لا توجد سيطرة نوعية على البضائع فيستورد التجار الردي منها لرخصه الا إن سهولة تسويقه تأتي من فقدانه من السوق قبل الاحتلال ، وقد أدى ذلك الى أغراق السوق بهذا النوع من البضائع

جدول رقم (٦)

يوضح تقديم المساعدات للأقارب

٢٠٠٧/٢٠٠٦		٢٠٠٦/٢٠٠٥		٢٠٠٥/٢٠٠٤		
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	
٧٩	١٩	٦٢,٥	١٥	٦٢,٥	١٥	نعم
٢١	٥	٣٧,٥	٩	٣٧,٥	٩	لا

ونجد في نسب الجدول ان العاميين الدراسيين ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ و ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ كانت نسبة المتقدمين المساعدات قد بلغت ٥,٦٢% مقابل ٥,٣٧ لم يقدموا مساعدات مالية، الا أن هذه النسب قد زادت في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ اذ بلغت ٧٩% مقابل تدني نسبة الذين لم يقدموا مساعدات اذ بلغت ٢١% ولعل تراكم رأس المال خلال عامين بفعل تحسن الراتب الوظيفي هو الذي ادى الى زيادة اهتمامهم بالاقارب وتقديمهم المساعدات المالية لهم، وهذا وضع طبيعي بالنسبة للمجتمع الموصللي لما اتصف به من حميمية، وهذا ما يفسره الجدول (٧)

جدول رقم (٧)

يوضح سبب تقديم المساعدة

٢٠٠٧/٢٠٠٦		٢٠٠٦/٢٠٠٥		٢٠٠٥/٢٠٠٤		
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	
٤٥	١١	٤١,٦	١٠	٥٤	١٣	اجتماعي
١٢,٥	٣	١٢,٥	٣	٨,٣	٢	اقتصادي
٢٥	٦	٣٧,٥	٩	٣٣,٣	٨	ديني
١٦,٦	٤	٨,٣	٢	٤	١	سياسي

ويتضح من الجدول اعلاه ان الدافع الاجتماعي وما يتضمنه من متبذية في العلاقات القرابية وعلاقات الصداقة كان هو الدافع الأكثر اهمية فشكلت النسب ٥٤% و ٦,٤١% و ٤٥% للسنوات ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ على التوالي الأكثر سبباً في تقديم العون المالي للاقرباء والاصدقاء المحتاجين وتلاه في الأهمية الدافع الديني فشكلت النسب ٣,٣٣% و ٥,٣٧% و ٢٥% لذات الاسنوات على التوالي.

ولعل تفسير ذلك ما أتصف به المجتمع الموصلي من ميزة التدين، وشاهدها كثرة المساجد والجوامع والمشاريع الخيرية ١ .

(١) أنظر د . حارث حازم . دور جماعة المسجد في التنمية الاجتماعية بحث مقبول للنشر في مجلة آداب الرفادين عام ٢٠٠٧ .

أما الدفع الاقتصادي في تقديم المساعدات المالية للاقرباء فقد حضي بالنسبة الاتية ٨,٣% للعام الدراسي ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥. واستقرار النسبة التي بلغت ٥,١٢% للعامين الدراسيين التاليين، وربما اتخذت المساعدات المالية شكل دعم المشاريع التجارية الصغيرة مقابل ربح رمزي، وقد يكون مرد ذلك هو ما اتسم به الافراد المُقدّم لهم العون من تعفف فابوا العون الا وكأنه مشاركة في مشروع اقتصادي مع مَنْ قدم العون والمساعدة.

اما الدوافع السياسية في تقديم لعون فقد كانت الاقل نسباً من بين الدوافع على انها أخذت هي الاخرى في التصاعد بوتيرة مطردة حسبما توضح ذلك النسب التي جاء على توالي سني البحث ٤.١%، وقد ارتفعت الى ٣,٨% ثم الى ٦,١٦. ولعل سبب هذا الازدياد المطرد هو الاتساق في العمل الحزبي على الرغم من ضعفه البادي في الكيان الاجتماعي

المحور السياسي

عنت السياسة منذ افلاطون وحتى بار سنز القوة، وقد اتخذت اشكالا منها السلطة وأداتها القهر، الاقتصاد ويده الطولى مصالح فئة معينة، كما عنت الفلسفة حينما شُخصت على انها ما يجب أن يكون عليه الواقع^١ ورغم اختلاف اشكالها فإنه كان لها شكلاً واحداً على مر العصور، الا وهو الدولة، "وما دامت الدولة هي المحتكر لممارسة السلطة والقوة في المجتمع على حد قول ماكس

(١) أنظر د. إسماعيل علي سعد / المدخل الى علم الاجتماع السياسي / در النهضة العربية بيروت / ط ١ ١٩٨٩

فيير لما تمتلكه من شرعية يصبح مواطنيها ملزمين بطاعتها والخضوع لها " ^١.

ولا شك أن حال العراق كدولة قبل الاحتلال ما كان ليشذ عن هذه القاعدة الفيبرية، أي أن مفهوم السياسة على الأقل بالنسبة للمجتمع العراقي بعد الاحتلال أخذ شكلاً آخر، وهو العراق نفسه، فغدت السياسة – العراق كله حضارة ومجتمعاً، ولما كان مفهوم السياسة قبل الاحتلال يعني فئة ما تمتهن العمل السياسي أو تحمل الفكر السياسي، فإن هذه الفئة قد غابت بعد الاحتلال ليحل محلها المجتمع كله، ولم تعد فكرة القوة ممثلة للفكر السياسي، بقدر ما أصبح الاهتمام بالعراق، فالعراق ومستقبله هو السياسة نفسها.

ولقد تدرج الاهتمام بالوضع السياسي للمجتمع العراقي من بمنحى تصاعدي حسبما يوضح ذلك الجدول رقم (٨)

(١) د. اسماعيل علي سعد / دراسات في المجتمع والسياسة / دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨٨ ص ١٣٣

جدول رقم (٨)

يوضح الاهتمام بالوضع السياسي

٢٠٠٧/٢٠٠٦		٢٠٠٦/٢٠٠٥		٢٠٠٥/٢٠٠٤		
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	
٩٥,٨	٢٣	٩١,٦	٢٢	٨٣,٣	٢٠	اهتم
٤,١	١	٨,٣	٢	١٦,٦	٤	لا اهتم

اذ بلغ الاهتمام بالوضع السياسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٤ ٣,٨٣% مقابل عدم اهتمام بلغ ٦,١٦% وازداد الاهتمام في العام الدراسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ الى ٦,٩١% ممن أهتموا مقابل ٣,٨ لم يهتموا، وبلغت في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ ٨,٩٥% مقابل ١,٤% لم يهتموا.

والتفسير الاجتماعي لتصاعد هذا الاهتمام هو أن زيادة الوعي الاجتماعي لابناء المجتمع العراقي، بان الاحتلال الامريكي لم يرغب الا في تعطيل عجلة الحضارة في المجتمع، ودليل ذلك ان قوات الاحتلال لم تعمل الا على زيادة عدد المعتقلات من جهة، ولم تفكر قط بادرة العراق كدولة وفق قوانين محددة، فكان يسيراً عليها ، ان تهدم بيتاً، أو تعتقل أي شخص لمجرد وشاية، اذ وجود لما يسمى بقانون تسير وفقه أمور الدولة، من جانب آخر أن مؤسسات الدولة في ظل الاحتلال تسير اصلاً وفق قوانين الدولة قبل السقوط

مما يجعل المجتمع العراقي يشعر بأنه يسير وفق ما يسميه بلا دولة تحكمها القوة، وقوانين دولتها اصبحت أثراً بعد عين.

و هذا التفسير هو الذي جعل من ابناء المجتمع يظنون الى مستقبل العراق نظرة سيئة وفق ما يوضحه الجدول رقم (٩)

جدول رقم (٩)

يوضح رأي المجتمع العراقي بمستقبل بلدهم

٢٠٠٧/٢٠٠٦		٢٠٠٦/٢٠٠٥		٢٠٠٥/٢٠٠٤		
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	
-	-	٤,١	١	١٢,٥	٣	أمن
٥٤,١	١٣	٥٠	١٢	٢٠,٨	٥	أسوء
٢٠,٨	٥	٢٠,٨	٥	٢٥	٦	غامض
٢٥	٦	٢٥	٦	٤١,٦	١٠	لانعرف

اذ تدنت النسبة من النظرة الحسنة ٢٠٠٥ / ٢٠٠٤ ٥,١٢ % الى ١,٤ % للعام الدراسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦، في حين اختفت هذه النظرة ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧، في حين كان حصة النظرة مجتمعة ما بين سيئة الى غامضة الى لا يعرف عام ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ ٨٧,٤ % ومن تصاعدها في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ الى ٨٥,٨، وبلغها العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ درجة ١٠٠ %

وتعد تلك التصورات عن مستقبل المجتمع العراقي مقبولة فلقد مضى على احتلال العراق سنواته الأولى، ولم يحضى العراق باي إنجاز خدمي، فما زالت جميع المرافق الخدمية وعلى راسها الكهرباء مشكلة عويصة يعاني من فقدها كل ابناء المجتمع، ناهيك في ارتفاع الاسعار المواد، وخاصة المحروقات أوقات فصل الشتاء.

إن ادراك الفرد العراقي لمخطط المحتل من جهة وتصوره لمستقبل بلده في ظل الاحتلال جعله لا يؤمن بالمشاركة السياسية وهذا ما كشفه الجدول رقم (١٠)

جدول رقم (١٠)

يوضح مدى ايمان المجتمع العراقي بالمشاركة السياسية

٢٠٠٧/٢٠٠٦		٢٠٠٦/٢٠٠٥		٢٠٠٥/٢٠٠٤		
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	
١٢,٥	٢	١٦,٦	٤	١٦,٦	٤	أومن
٨٧,٥	٢١	٨٣,٣	٢	٨٣,٣	٢	لا أومن

حيث بلغت نسبة الذين لا يؤمنون بالمشاركة السياسية على مدار العامين الدراسيين ٢٠٠٥ / ٢٠٠٤ و ٢٠٠٦ / ٢٠٠٥ ٨٣,٣% مقابل نسبة ٦,١٦ ممن يؤمنون بها، وحتى نسبة المؤمنين بها تقلصت الى ٥,١٢% مقابل ٥,٨٧ ممن لا يؤمنون بها في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧، ولعل فكرة

الايمان بالمشاركة السياسية لهذه النسبة القليلة مصدرها ارتباط المؤمنين بها بشكل أو بآخر بمن يعملون في المؤسسات السياسية الرسمية وغير الرسمية (الحزبية) أو حتى المؤسسات الأمنية.

المحور الديني

يشكل الدين معرفة ذات وجهين هما التعالي والواقعية، ولا يمكن الفصل بينهما على الاقل نظرياً، حتى اصبح الدين الساحة الوجودية التي لا جدال في حقيقتها العملية، وغدا الدين النقطة المرجعية التي يتم الاحتكام اليها، ليس في شرقنا المتدين حسب، بل حتى في العالم الغربي – العلماني، بحيث يقيم أي سلوك من منطلق دينيته *، وقد شكل ذلك التقاطع ما بين الديني وسواه ما اسماه " كارل مانهايم في علم اجتماع المعرفة بـ " ارتباط الوجود " أي التكامل العضوي لمجموعة ما يتم به بناء فعل الفاعلين الاجتماعيين " (١) ضمن المحيط الاجتماعي، فلا فردانية للتعالي، على الواقعي، ولا استغلال للواقعي عن المتعالي.

واذا كان الارتباط الاجتماعي قائم على اساس المواطنة فلا شك أن المتغيرات العرقية تبقى تحتفظ بخصوصيتها، أما الارتباط السياسي فلا شك مرتتهن بالتوجهات العقيدية للأحزاب السياسية وهكذا دواليك، الا الارتباط الديني و فهو ارتباط وجود بين الجميع، وان كانت هناك تيارات طائفية أو مذهبية أو حتى ديانات مختلفة، الا انها تحدد علاقاتها مع بعضها وفق المتعالي

(*) لعل موضوع الحجاب وتحريم لبسه في فرنسا ، أحد الأمثلة الشاخصة التي تؤيد وجهة نظرنا.

(١) غانم هنا / من الأسطورة الى الدين / ندوة الدين في المجتمع العربي / مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ط ١ ١٩٩٠ ص ٨٤.

الاول (الله سبحانه وتعالى) وهنا يتمايز علم أجتماع المعرفة كأداة " تحليل محايد لطبيعة تواسطات ثقافية بين البناء الأجتماعي والوعي، يقول دكسون أن فكرة الفهم الاجتماعي للدين تقتضي مجرد التقمص وليس الالتزام والموافقة مع صعوبة الفصل بينهما "(١)

من هذا التحديد المنهجي أثير تساؤل تأدية الفروض الدينية، ولقد كانت نتائج الاجابة حسبما يوضحها الجدول (١١)

جدول رقم (١١)

يوضح تأدية الفروض الدينية لابناء المجتمع العراقي

٢٠٠٧/٢٠٠٦		٢٠٠٦/٢٠٠٥		٢٠٠٥/٢٠٠٤		
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	
٨٣,٣	٢٠	٩١,٦	٢٢	٨٧,٥	٢١	نعم
١٦,٦	٤	٨,٣	٢	١٢,٥	٣	لا

غير مستقرة على وتيرة واحدة، حتى وان كانت في كل الأحوال قد تجاوزت نسبة الذين يؤدون فروضهم الدينية نسبة الـ ٨٠% فقد بلغت نسبتها في العام الدراسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٤ ٨٧,٥% مقابل نسبة ٥,١٢ لم يؤدوا فروضهم الدينية ثم عادت فأرتفعت الى ٦,٩١% في العام الدراسي ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦

(١) حيدر إبراهيم / الاسس الاجتماعية للظاهرة الدينية / ندوة الدين في المجتمع العربي / مصدر سابق ص ٤٤ .

مقابل انخفاض نسبة الذين لا يؤدون فروضهم الدينية الى ٣,٨%، الا أنها عادت فانخفضت في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ الى ٣,٨٣% وارتفعت بالمقابل نسبة الذين لم يلتزموا بفروضهم الدينية الى ٦,١٦%

ويبدو إن التفسير الاجتماعي لهذا الارتفاع في نسبة الالتزام بالفروض الدينية متعلق بالشق المتعالي، واداء الطقوس المتعلقة بالفروض الدينية النظرية، ولعل الالتزام السلوكي اجتماعياً للبعض منهم يتقاطع والتصور الديني، الا أنهم تجاوزا ذلك التقاطع بأدائهم طقوس الدين وشعائره دون الالتزام بتعاليمه، وربما يؤكد ذلك الجدول رقم (١٢)

جدول رقم (١٢)

يوضح مدى ايمان المجتمع العراقي بدور الدين في قيادة المجتمع

٢٠٠٧/٢٠٠٦		٢٠٠٦/٢٠٠٥		٢٠٠٥/٢٠٠٤		
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	
٧٥	١٨	٧٩	١٩	٩١,٦	٢٢	نعم
٢٥	٦	٢٠,٨	٥	٨,٣	٢	لا
	٢٤		٢٤		٢٤	المجموع

حيث يتضح أن نسبة ٧٥% من افراد المجتمع آمنوا بدور الدين في قيادة المجتمع مقابل نسبة ٢٥% لم تؤمن بهذا الدور في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧، في حين أن هذه النسبة كانت منخفضة في العام ٢٠٠٥/٢٠٠٤ إذ بلغت ٣,٨% مقابل نسبة ٦,٩١% آمنت بدور الدين في قيادة المجتمع، ولعل

تفسير ذلك مرتبط بتدهور الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري والأمني فضلاً عن دور الاحتلال الأمريكي، فلم يكن في اليد حيلة من الرجوع الى القوى الغيبية، والتشبث بالدين، ناهيك عن لدور الايجابي للمساجد في رد المظالم ووقوف الكثير من الشباب والرجال بدوافع دينية أمام احداث السلب والذهب بعد سقوط البلد ٩ / ٤ / ٢٠٠٣ ، الا إن ذلك لم يدم طويلاً فمع واقعية الحياة يكون من الصعب تأطيرها بتعاليم الدين النظرية. خاصة وان الالتزام بالتفسير الديني المتشدد دون الاخذ بنظر الاعتبار ظروف العصر الحديث، وغير ذلك جعل الاعتقاد بدور الدين في قيادة المجتمع يضعف.

مقابل طرف المعادلة. هذه كانت هناك الجماعات الدينية، وقد تعددت هي الأخرى ما بين مسلحة وأخرى غير مسلحة، حزبية وأخرى سلفية، متزمتة وأخرى معتدلة.. علنية وأخرى سرية... ولتباين برامجها وتنوع أساليبها في محاولتها تطويع النظرة الدينية النظرية على مستوى الواقعية مع الأخذ بنظر الاعتبار تباين المصالح الشخصية سواء لقادة هذه الجماعات أم مصالح المؤمنين بها، أو مصالح عموم أبناء المجتمع ناهيك عن تفاوت المعرفة الدينية، وجرنتها على القوى، ومطاردة الاحتلال الأمريكي والقوات الأمنية لكل الجماعات الدينية التي لم تؤمن بالمشروع السياسي المطروح، فضلاً عن عوامل أخرى، كل ذلك جعل رؤية أبناء المجتمع للجماعات الدينية رؤية منمطة آخذة بالاتجاه نحو تدني الاعتقاد بدورها في قيادة المجتمع، وهذا يو ضحه الجدول رقم (١٣)

جدول رقم (١٣)

يوضح مدى أعتقاد ابناء المجتمع بالحركات الدينية

٢٠٠٧/٢٠٠٦		٢٠٠٦/٢٠٠٥		٢٠٠٥/٢٠٠٤		
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	
٦٢,٥	١٥	٦٦,٦	١٦	٧٩	١٩	نعم
٣٧,٥	٩	٣٣,٣	٨	٢٠,٨	٥	لا

أذ بين الجدول أن نسبة المعتقدين بدور الحركات الدينية في العام الدراسي ٢٠٠٥/٢٠٠٤ ٧٩% مقابل نسبة ٨٠,٢٠% ممن لم يعتقدوا بدورها نجدها قد تدنت الى ٦٦,٦% العام الدراسي ٢٠٠٦/٢٠٠٥، ثم بلغت العام الدراسي ٢٠٠٧/٢٠٠٦ ٥٠,٦٢% الا أن هذه النسبة ما زالت تتجاوز الـ ٦٠% مما يعني توفر الرغبة الدينية لدى افراد المجتمع العراقي في توفير ما عجزت عن تحقيقه المؤسسات السياسية والأمنية.

المحور الثقافي

إذا كانت من علائم التغير الاجتماعي الكبير في المجتمع العراقي عقب الاحتلال الأمريكي إنهيار المؤسسة السياسية وظهور الاحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني فان التغير الثقافي كان المدلول الاكثر وضوحاً في مجال التغير الإجتماعي.

فإذا كانت الأحزاب السياسية العراقية عقب الاحتلال ليس لها جماهيرية شعبية، بل أن مقراتها، غالباً ما كانت محاطة بأسيجة ومتاريس تحولت الى

كونكريتية بعد مضي السنة الأولى من الاحتلال، فأن مؤشرات الثقافة لم تفقد شعبيتها.

وأول تلك المداليل وسائل الاتصال الجماهيري من صحف ومجلات فضلاً عن أجهزة الاستلايت... الخ حتى أن الكثيرين حين يشيرون الى التغير فانهم يقصدون ذلك الانفتاح على العالم، وهذا ما يؤكدوه الجدول رقم ١٤

جدول رقم (١٤)

يوضح مدى اهتمام ابناء المجتمع بوسائل الاتصال الجماهيري

٢٠٠٧/٢٠٠٦		٢٠٠٦/٢٠٠٥		٢٠٠٥/٢٠٠٤		
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	
٩٥,٨	٢٣	٩٥,٨	٢٣	٧٩	١٩	نعم
٤,١	١	٤,١	١	٢٠,٨	٥	لا
	٢٤		٢٤		٢٤	

لقد تنامت نسبة المهتمين بوسائل الاتصال الجماهيري من ٧٩% في العام الدراسي ٢٠٠٥/٢٠٠٤ الى ٩٥,٨% في العامين الدراسيين اللاحقين أما منذ المجتمع العراقي الى العالم فقد تمثل بمقاهي الانترنت التي ازدادت من نسبة ١,٥٤% في العامين الدراسيين ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥، ٢٠٠٥ -

٢٠٠٦ الى ٧٥% في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ حسب الجدول رقم (١٥)

جدول رقم (١٥)

يوضح مدى ارتياد أبناء المجتمع لمقاهي الانترنت

٢٠٠٦/٢٠٠٧		٢٠٠٥/٢٠٠٦		٢٠٠٤/٢٠٠٥	
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار
٧٥	١٨	٥٤,١	١٣	٥٤,١	١٣ نعم
٢٥	٦	٤٥,٨	١١	٤٥,٨	١١ لا
	٢٤		٢٤		

ومما يفسر هذا الازدياد ازدياد المعرفة التقنية من جهة وزيادة عدد مقاهي الانترنت التي باتت مصدراً للرزق في ذات الوقت للبعض الآخر.

وقد يكون لذلك الدور الكبير في جعل الكتاب كمصدر للمعرفة يتراجع عن دوره في البناء الثقافي لافراد المجتمع فلقد تدنت نسبة المهتمين بالكتاب من ٦,٩١% في العام الدراسي ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ الى ١,٥٤ في العام الدراسي ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ حسب ما وضح ذلك الجدول رقم (١٦)

جدول رقم (١٦)

يوضح مدى اهتمام ابناء المجتمع بالمطالعة

٢٠٠٧/٢٠٠٦		٢٠٠٦/٢٠٠٥		٢٠٠٥/٢٠٠٤		
نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	نسبة	تكرار	
٥٤,١	١٣	٥٠	١٢	٩١,٦	٢٢	نعم
٤٥,٨	١١	٥٠	١٢	٨,٣	٢	لا
					٢٤	

و في رسالة ماجستير قدمت الى قسم الاجتماع بجامعة الموصل عام ٢٠١٠ عن تداعيات الحراك الاجتماعي عقب الاحتلال، توضح مقدار التوافق في القوى عن الحراك الاجتماعي العراقي وطبيعته مع ما توصلت اليه دراستنا خلال زمن الاحتلال إذ أظهرت دراستنا ان نسبة ٩٢.٨% قد اهتموا بموضع السياسة وهي نسبة تتفق الى حد ما مع الدراسة السابقة وقد قالوا بوجود حراك سياسي بعد الاحتلال نسبة ٩٢.٧٥%.

بالمقابل توصلت الدراسة عن وجود آثار ايجابية واخرى سلبية اما الايجابية منها: فقد تمثلت بحرية الاعلام والتعدد في الاحزاب وتداول سلسلة وحرية الفكر... أي انها في واقع الامر ليست عملية لما يقابلها من آثار الدولة والمخاطر المحدقة بقسم البلد ناهيك عن فقدان الثقة بين افراد المجتمع

والمؤسسة الامنية، وهذا ذات ما توصلت اليه دراستنا من ان ٨٧% لا يؤمنون بالعملية السياسية.

اما الجانب الاجتماعي فقد بين البحث ظهور شرعية جديدة هي شرعية انتهاء الحروب فضلاً عن الشرعية الدينية التي احتلت مراكز السلطة العليا بعد الاحتلال.

اما فقرة هذا الحراك الاجتماعي فهي لم تكن واحدة إذ أن ٨٨.٢٥% اشاروا الى تباين مستوياتها بل ان ٧٢% من العينة اشاروا الى معرفتهم لاشخاص احتلوا امكانات اجتماعية ووظيفية لا يستحقونها بعد الاحتلال.

وهذه النتائج وغيرها يؤكد حقيقة ان الحراك الاجتماعي في المجتمع العراقي بعد الاحتلال كان ارتجالياً تحكمه الظروف والمصالح الشخصية وليس مبنياً وفق ظرف تاريخي طبيعي على الاقل يمكن تذبؤ المستقبل في ضوءها فهي ما يرغب الامريكي في حدوثه.

وهو ما تؤكد دراستنا إذ كانت ارتجالية سبباً في جعله غير منسجم والمثال القيمي التقليدي (القديم) وهو ما يرفضه المجتمع العراقي إذ وضحت الدراسة ان العلاقات بعد ان كانت لي العام الاسرة العراقية في العام ٢٠٠٤/٢٠٠٥، ٨٧.٥% اصبحت قوية ١٠٠٠ في العام ٢٠٠٦/٢٠٠٧ العلاقات داخل المدينة ضعفت بنسبة ٢٥ اصبحت ضعيفة بنسبة ٩١.٦%

وتفسير قوة العلاقة في الاسرة مرده انكفاء العراقي وعودته الى مثاله القيمي داخل محيطه الأولي حيث يستطيع رب الاسرة على اقل تقدير مواجهة

التغيرات الطارئة التي أحدثها الفعل الخارجي فضعت بالمقابل العلاقات داخل المدينة لتصبح ٩١.٦% في العام ٢٠٠٦/٢٠٠٧.

وفي واقع الامر ان نتائج الدراستين تؤكدان ان ما ذهبنا اليه من أهمية النظريات التي تأخذ في الحسبان الدمج بين العقل والفاعل ولأن هذا التفاعل كان موجداً قبل الاحتلال وجدنا اندسجماً سلوكياً ما بين تصرفات وسلوكيات الافراد في مجمل سلوكهم الاجتماعي مع المثال القيمي الذي طوره لينسجم ومتطلبات التغير الاجتماعي كما ان مجمل الحراك الاجتماعي وإن كان يواجه برفض لغوي (صوري) غلا انه كان يقابل في الوقت بدعم سلوكي وفق منطق التبرير الاجتماعي.

اما ما حدث بعد الاحتلال فلأن التغيرات القسرية كانت خارجة عن البناء القيمي فلم يتمثلها في سلوكه ولهذا فإن مجمل الحراك السياسي والاجتماعي الذي حدث لهم يحظى بالقبول الاجتماعي فلم يكن هناك ايمان بالعملية السياسية كما لا يوجد تقدير اجتماعي للافراد الذين حققوا نقلات اجتماعية فكان عودة العراقي لاسرته وابتعاده عن المدينة حيث الحضور الفاعل لرموز الحراك الاجتماعي فيها امراً طبيعياً.

وهنا يمكن القول بان مرحلة الاحتلال لم تشهد ظهور مثال قيمي جديد بمقدار ما كان تمسكاً بثوابت النظام القيمي القديم مقابل تقبل مستجدات المرحلة الحاضرة كواقع حال وليس كمنظم سلوكي يهتدون به. ويعد ذلك مسالة طبيعية، لان الاحتلال مهما طال أمده يُعد حالة طارئة فيكون اللجوء للمثال القيمي السابق على وجود الاحتلال بمثابة التمسك ليس بالهوية الوطنية. وربما يكون التمسك باصرار على ثوابت المثال القيمي دليل على ذلك. ويمكننا ان ندلل على

ذلك من خلال ملاحظتنا لثقافة الملبس على اقل تقدير ففي عقد السبعينات بعد كانت ثقافة الملابس القصيرة شائعة ومألوفة لدى النساء العراقيات (في المدن خاصة) ثم تدرجت مودة الملابس لتصبح التنورة الطويلة هي الشائعة خلال عقدي الثمانينات والتسعينات بعد ان كانت ثقافة الملابس النسائية في الخمسينات لا تعرف التنورة على العموم وانما ترتدي النسوة اللباس التقليدي (ثوب طويلة وغطاء رأس) ان لم يكن في الغالب يرتدين الخمار نجد ان معظم العراقيات خلال فترة الاحتلال كانت ثقافة الملابس الطويلة (التنورة الطويلة، الحجاب) هي السائدة. بل انك على اقل تقدير لا تجد من بين عشرة فتيات في الجامعات العراقية الا واحدة لا ترتدي الحجاب وهذا مؤشر واضح على التمسك بأحد جوانب المثال القيمي القديم.

الفصل الخامس

تأطير البحث نظرياً

الفصل الخامس

تأطير البحث نظرياً

طبيعي ان كل عمل يكتب لا بد ان يخرج بذتائج واذا كانت الذتائج غالباً ما تحمل واقعاً تجريدياً بالنسبة للبحوث التطبيقية. فانه من المُكْمِلُ العلمي لها تأطيرها نظرياً لتكون نتائج يمكن أن تُعد لبنة تضاف اليها فيما بعد لبانات لرسم معالم نظرية معينة.

ولعل ما يتمتع به علم اجتماع المعرفة من خصوصية وقدرة على الجمع بين فهمه "للقضايا الاستمولوجية على المستوى النظري، ولقضايا تاريخ الفكر على المستوى التجريبي" شجعتنا على تقديم محاولة متواضعة لتفسير مسيرة البحث التجريبية بطريقة نظرية الهدف منها تحديد ما يمكن تحديده من الواقع ونقله الى بناء النظرية الاجتماعية بدأ بالمنهج الفينومينولوجي وتفسير جذور لنظرية البنية ثم توظيفنا لعلم اجتماع المعرفة كمنهج وعلم (نظرية) يعالج التداخل ما بين الظاهر ائية كمنهج والنظرية الاجتماعية وعلى الشكل الآتي:

يؤكد المنهج الفينومينولوجي على "وصف الظواهر وصفاً دقيقاً والكشف عن اسباب ظهورها في أي شيء في الزمان والمكان ولكي تقوم بهذه المهمة فانها تستند على مفهوم رئيسي هو قصدية الوعي الذي يعني بالاساس التوجه نحو الموضوع من خلال الذات"^(١).

(١) شحاتة صيام، علم اجتماع المعرفة وصراع التأويلات من العقلانية إلى جدل الذات، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٥٨ .

والمثال القيمي هو النموذج الذي يسعى افراد المجتمعات وجماعاته
الاحتذاء به، قصدية الوعي والشعور باهمية وصعوبة العمل بمنطق التعليق
تعليق الذات للباحث من أجل رسم صورة الواقع كما هو من خلال استجلاء
صورة مثاله القديم على الأقل منذ منتصف القرن العشرين ومحاولة تبيان رصد
التغير الاجتماعي الذي لحقه بتغير الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية
وحتى العسكرية عقب الاحتلال الأمريكي.

والمنهج الظاهراتي بقدر ما هو تركيز على مظاهر الوجود هو في الواقع
الحال بحث في الوجود البشري كصورة كلية هي على الاقل اجتماعية او
بشرية حال أن يكون موضوع بحثه المجتمع. فالوجود البشري وجود ظاهري
له حيز يمكن ان نلمس فيه ما قد نعتقد انه قد اصابه شيء من التغير.

ولعل تحديدنا للمنهج الظاهري كان لدواعي من بينها مفاهيمه التي نعتقد
وضوح البعض منها بشكل جلي والبعض الآخر بشكل اقل وضوحاً في
موضوع بحثنا وقد تمثلت تلك المفاهيم بالعواطف والمواقف^(١)

أ - العواطف:

"اجتماعيا بالطبع ليست هناك عاطفة خالصة صافية او مجردة او شعور
نفسي خالص، بل دائماً تَفَنُّتُهُ بالتعلم الاجتماعي من خلال القالب الثقافي^(٢)،
وهذا بالضبط هو ما عملنا على ابرازه فلقد كان الشعور بالمجتمع هو أحد
اساسيات المثال القيمي، كما أن حالة التهيء لقبول فكرة التغير التي بدأت

(١) اعداد فادية عمر الجولاني، علم الاجتماع الوجودي والنظرية الاجتماعية، المكتبة
المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩، ص ٣٩-٥٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١ .

ملاحظتها تظهر أواخر الستينات ما هي إلا حالة شعورية عاشها المجتمع العراقي وان كان شعوراً رتيباً متماشياً مع رتابة المتغيرات الاجتماعية التي اتسمت بالبط والتنظيم على خلاف حالة الشعور التي كانت رمزية في المعادلة الاجتماعية النفسية ذات التضامنين الصوري النفسي- السلوكي ابان فترة الحصار، وما حالة الانكفاء والعودة الى شكل المثال القيمي القديم مطلع الاحتلال الأ حالة شعورية هدفها اظهار جوهر المجتمع العراقي بانه يشكل وحدة لا تقبل التغير من الخارج وفق محددات ثقافية جاء بها الاحتلال.

ب - المواقف

في جميع تصورات المنظرين في الفينومولوجيا ان الموقف هو "فكرة اكدت ان قصودات وتعريفات الفاعل، انما اولية ومشاركة، اضافة الى ان هناك تقبل لأهمية الآخرين، ومعلومات يكون الفعل بها ممكناً لتعريف الموقف او مضاد للحالة الخارجية، والخط العام لمبادئ الموقف سوف تتضمن معلومات لمعرفة وجهة نظر الفاعل والموضوعات الطبيعية والاجتماعية للحالات الداخلية والمشاعر، والاطار العام للعمل، وتظهر كلها في الاطار العقلي ضمن المعرفة ووضع التوقعات او الممكنات لسلوك الذات او الاخر"^(١)، وهنا لم يكن بحث الموقف الاجتماعي الذي ساهم ببناء صورة الرمز يخرج عن استجابة وتأثير في الوسط ومن ثم الخروج بمعرفة نظرية وعملية كانت اوضحها في المجتمع العراقي ضمن الاطار العملي، السماح الاجتماعي (ان جاز القول) للمجتمع لابنائه بالعمل الاضافي بعد العمل الرئيسي للأيفاء بمتطلبات الحياة

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩-٥٦.

الصعبة التي فرضها الحصار الجائر. وضمن اطار المعرفة النظرية قدم المجتمع تبريراته اللفظية لهذه الحالة المستجدة مع المجتمع من خلال المقولات التي اصبحت متداولة في الشارع العراقي مثل (الشغل مو عيب).

و حين ذعاين هذه الجزئية مطلع الاحتلال نجد العراقي قد تفاعل مع الموقف بذات الصيغة فهو ان تكيف عملياً مع الواقع المفروض عليه على الاقل اقتصادياً بانفتاحه على السوق العالمية إلا أنه نظرياً قد حدّد السلوك الاجتماعي المصاحب لذلك بالمثال القيمي القديم حسبما اوضحت الدراسة الميدانية.

ان المنهج الظاهراتي بمفاهيمه الهوسرلية، التعليق، القصدية، الوعي وسواها ومفاهيمه التي ادخلت عليه عقب هوسرل العواطف، الجسد، الموقف، النفس، الحالة.. الخ انما يوجي بوجود فكرة التماثل مع الواقع والتعامل بمنطقية عدم السماح لبدء الرأي تجاهه، فلا نقد يظهر بالموضوع من سلبيات، ولا ايمان بمبادئه تصل حد الاعجاب، انما حياة يعيشها الباحث ووصف لهذه الحياة بما عنده وعند المجتمع يعني بمشاعره مواقفه مشاركة بحيثيات المجتمع لا انقطاع عنه لتحقيق ما يسمى بالموضوعية. لان الموضوع والذات في المنهج الظاهراتي هو عينه موضوع واحد وهو ما يدعوه كارل يسبرز الذي يدعو لما يسميه بالشامل او المحيط الذي يشمل "الوجود في ذاته الذي يحيط بنا، الوجود الذي نكون عليه... نتحرر من العلاقة الموضوعية الضيقة مع بيئتنا، ونتجاوز الهوة القائمة بين الذات والموضوع عن طريق المشاركة"^(١).

والمشاركة عندنا هي العيش بمنطق البيئة، والقدرة على استخلاص المخطط النظري لها، وبناء نظامها التجريدي في قالب يسمح للآخر بان يضع

(١) اعداد فادية عمر الجولاني، المصدر السابق، ص ٣٩-٥٦.

ذلك القلب في موقع الـ هذا حين يتعامل معه ككيان نظري يحكم من خلاله على المجتمع الذي مثله.

والقول بهذا التعريف الأجرائي للمنهج الظاهراتي يقودنا الى العودة الى ما ابتدئنا به بحثنا عن نظريتي كريب وجدنز حول التوحيد بين المنهج والعلم وحول المزاوجة بين النظريات الصغرى والكبرى. ففي الحديث عن كريب، وجدنا ان المشاركة كانت المخطط النظري لهذا التوحيد فهي حديث عن المرونة والنسبية والذاتية.. المرونة حين يكون منهجنا نشدان الحقيقة لا التمسك بقول نظرية دون أخرى وبذلك يصبح موضوع البحث ما هو عليه لا ما نريده عليه فهو الذي يحدد ما الذي يجب ان نضعه فيه لا ما نريده نحن ان نضعه فيه، والنسبية حين نؤمن بان الموجود هو احتمالي وليس المطلق فالأحمالي يشير الى وجود الآخر حتى وان كانت صورته غائبة اما الذاتية فلا شك هي تعامل مع الجميع وفق المستوى الأفقي من المعرفة ووفق المنطق الاركيولوجي حين نعود الى الماضي ونصعد منه الى الحاضر والمستقبل وبذلك تأخذ هذه النظرية الى عالم الواقع الذي نعيش لا واقع الفكر النظري للمنظر حين يرسم صورة تحليلية لمجتمع يأمل ان نكون على هواه.

وهذا بالضبط هو ما يجعل موضوع بحثنا قابلاً لفكرة التبدل عبر فترات زمنية لتبدل ظروفها فيصبح الموضوع (المثال القيمي) هنا كلاسيكياً منكفاً على ذاته وهنا منفتحاً على غيره، فيه الغث والسمين الصالح والطالح. وليس ما نريده نحن في أي صورة جميلة نرتبه.

هذه الصورة الواقعية هي ما تقودنا الى جدنز حين درس الممارسة، او ما يسمى بتشكيل البنية ولعل ميزتها هي ما يجعلها قريبة من موضوع بحثنا،

فالمثال القيمي هي نتاج الواقع، وليست أبداً هي قوة مفروضة على الواقع، ربما تلعب القوة دوراً في التأثير على الواقع، إلا أن النتيجة أن الواقع يعيد صياغة تلك القوة بمنطقة لينتجها بلغته فيصبح الناتج ابن بيئه، يقول جدنز "أن أحد أغراضه من صياغة نظرية البنية هو أن يضع حداً لكل واحدة من المحاولات الامبريالية. أن مجال العلوم الاجتماعية من وجهة نظر البنية ليس استيعاب خبرة الفاعل -الفرد- أو البحث عن صورة من الشمولية المجتمعية، لكن البحث عن أشكال الممارسات الاجتماعية المنظمة عبر الزمان والمكان"^(١).

والحياة اليومية هي المكان الأنسب لملاحظة تلك الخبرة وتشخيص السلوك هو الأوثق لبيان ملامح العملية التي يسعى المُنظر إلى البحث عن صورها في بنائه القيمي من خلال الأعداد الاجتماعية الذي يُعده المجتمع لأفراده.

وأن لقاء نظرة على الواقع العراقي من خلال تتبع نمط سلوكيات ابنائه وفق التحليل الذي اشرنا اليه دليل حي على مصداقية جدنز من جانب تركيزها على الواقع. حيث وجدنا أن المثال القيمي عبر مراحل بنائه غالباً ما ارتكز على الممارسة، فالممارسة التي نهجها المجتمع بدأ من التغيرات الملحوظة على المجتمع العراقي في عهدي مدحت ونامق باشا وانتهاءً بالممارسات التي نهجها في ظل الاحتلال، تمخضت دوماً عن بناء قيمي عكس تلك التوجهات.

ربما هناك الكثير من الممارسات التي لم يكن لها تأطير نظري إلا أن الممارسات التي لها صلة بقيم المجتمع العراقي وتمس حياته الاجتماعية من

(١) احمد زايد، آفاق جديدة في نظرية علم الاجتماع-نظرية تشكيل البيئة، مصدر سابق، ص ٦٩.

جانب القيم حظيت باشبه ما يمكن تسميته بالتأبؤ فالعراقي قد سمح بالتغير على الصعيد الاقتصادي مثلاً وواكب مستجدات الظروف بمجملها إلا أنه لم يسمح للقيم بالخروج عن الأطار العام لتراثه القيمي فعلى سبيل كان التغير قد بدأت تأتي ثماره مطلع السبعينات على الجانب المادي، وسمح بالمقابل لمثاله القيمي بالتحرك ضمن اطار هذا التراث فكان تغيره (المثال) مقبولاً، إلا أنه وفق التغيرات التي جاء بها الاحتلال سمح بالتغير في الجوانب المادية، لكنه عاد بمثاله القيمي وبشدة الى تراثه القيمي ليس التسعيني او الثمانيني حتى بل حتى الخمسيني. فذشط الفكر الديني الى حد ما وعادت ظاهرة الحجاب وبقوة الى الساحة العراقية في وقت معظم العالم يدعو بل ويعيش ظاهرة تنتقد الحجاب ونود ان نذكر ان العودة الى ذلك التراث هو إرادة شعبية محض فلا الحكومة ولا أي مؤسسة سياسية تعمل على ذلك.

ان الظاهراتية ونظرية جدنز لم تكونا المحورين الذين تم درس المثال القيمي لها والى جانب ذلك نجد ان علم اجتماع المعرفة هو المحصلة التي تجمع الظاهراتية ونظرية الممارسة. من زاوية، اهتماماته البحثية والمنهجية، فالمثال القيمي هو أي فكر اجتماعي يوجه السلوك الاجتماعي، مصدره الواقع كما اسلفنا وهذه متغيرات علم اجتماع المعرفة الذي يجعل تبادل الفكر والواقع محاور بحثه الرئيسة، فهو يعمل على تحليل ودراسة "مجموعة التصورات النظرية التي تسود في فترة تاريخية اجتماعية محددة"^(١).

وقد وجدنا من خلال تتبع مراحل تطور التغير الاجتماعي المثال القيمي في تصورات نظرية كانت بمثابة محركات سلوكية لمجمل نشاط الحياة اليومية

(١) شحاتة صيام، مصدر سابق، ص ٨٧.

وقد أخذ علم اجتماع المعرفة على عاتقه مهمة مزدوجة ما بين قراءة تفاصيل الحياة اليومية وما بين التنظير لها، أي ان قراءة الواقع اليومي حظيت بدرجة اكبر "وهو يهتم في المقام الاول بما يعرفه الناس انه واقع في حياتهم اليومية، أي حياتهم غير النظرية او قبل النظرية، وبعبارة أخرى يجب ان تكون المعرفة الشائعة وليس في الافكار هي البؤرة الجوهرية لعلم اجتماع المعرفة، وهذه المعرفة بالضبط هي ما يؤلف نسيج المعاني التي من غيرها لا يمكن ان يوجد أي مجتمع"^(١).

يحمل صفة الحياة، ويكاد يتميز على غيره من الفروع التصاقه بالواقع المعاش على مستوى الممارسة "بوصفه نظرية مكيفة او مهينة لدقل التجريبي لعلم الأجماع"^(٢).

الى جانب اهتمامه ببحث النظرية الاجتماعية على المستوى النظري الصرف، بل ويذهب بيرغر ولوكمان الى اناطة مهمة كبيرة له فيما يخص مستقبل النظرية الاجتماعية وان كان البحث التنظيري فيه قد تأخر الى حد ما حيث يقولان في البنية الاجتماعية للواقع "فان مفهومنا لعلم اجتماع المعرفة يحمل ايضاً بعض التبعات العامة للنظرية الاجتماعية، بل لعلم الأجماع ككل. ويقدم منظوراً مختلفاً في عدد من مجالات الاهتمام بالبحث الاجتماعي"^(٣).

(١) بيتر بيرغر، توماس لوكمان، البنية الاجتماعية للواقع، ترجمة: د. ابو بكر احمد باقادر، الاهلية للنشر والتوزيع، الاردن، ط١، ٢٠٠٠، ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧ .

(*) واي نظرية تؤمن بهذا الخط العام يمكن ان تحل محل نظرية جدنز.

وأخيراً نود ان نستوضح امراً ونبين غاية علمية قد سعينا الى ابرازها..وهي ان المنهج الظاهراتي والتوجه نحو بحث تفاصيل الحياة اليومية واستخلاص القضايا النظرية من بين ثناياها وقد تمثلت هنا بنظرية جدنز وعلم اجتماع المعرفة* كعلم يسعى الى صياغة قوالبه النظرية من التجريب، يشكل طرْحاً لقضية نظرية تصلح نقطة انطلاق لدراسة لاحقة وهي على الشكل التالي:

تتداخل المتغيرات الداخلية الذات، الوعي، القصد، العواطف...الخ مع المتغيرات الخارجية الواقع، اللغة، الجماعة...ضمن شبكة التداخل ما بين ما يعكس المتغيرات الداخلية والخارجية كفكر حددهما الواقع الاجتماعية بظرفيته الزمانية والمكانية واطارهما الاجتماعي مما يرسم صورة للواقع الاجتماعي ولشخصية الفرد في المجتمع ويحدد غطاها السلوكي والحضاري.

المشاكل القيمية والتغير الاجتماعي،

الخاتمة

ان الانتهاء الى إقرار نتائج نهائية، قد يثير مسألة نقاشية، إذ لا نهاية في الأحكام الانسانية، لأن الانسان ككائن مفترض وواقعي، لا يكاد يستقر على حكم ما الا وعوادي التغير تدب فيه بعد حين.

فينبري لايراد الحجج والبراهين التي يؤكد فيها مبررات تحوله من موقف أو رأي الى موقف أو رأي آخر.

وطبيعي أن كثيراً من مواقفه المتغيرة ما تطال تطلعات الحياة المادية، بشكل اسرع مما تطال القيم المعنوية، وذلك لا شك مقولة لاوكبرن ونيمكوف، لم نأتي بشيء جديد عليها.

الا اننا نستدرك على نظريته، أنه لا يوجد بالضرورة تغير في جميع القيم المعنوية، وذلك ان القيم الدينية على سبيل المثال قيم ثابتة لا تتغير، وان النص الديني في العصر الحاضر، هو نفسه الذي كان زمان الانبياء عليهم الصلاة والسلام.

نعتقد بأن تفسيرات تلك النصوص هي التي تتباين وتختلف الا إن تلك التفسيرات لا تسير بنفس الوتيرة التي تسير بموجبها التغيرات التي تحصل في الجوانب المادية.

أما التغير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي فإنه صحيح تنطبق عليه نظرية أوكبرن، ومن ثم اذا اسلمنا بهذه النظرية، فإنه لا شك يكون لهذا التغير اسباب مادية وواقع اجتماعين فيحمل هذا الواقع البنيات الذهنية التي تعبر عنه وتغدو كل بنية ممثلة للواقع الذي نبعت منه.

وما دافع حال المجتمع العراقي الا خاضع لهذا التفسير، اذ كان لكل مرحلة من مراحل المجتمع العراقي سواء مراحل التطور السياسي، أو مراحل التطور الاقتصادي..ز الخ بنى ذهنية عكست أوضاع تلك المراحل.

ففي القرن التاسع عشر وحتى مطلع الخمسينات امتاز المثال القيمي بالثبات الى حد كبير، فلما وصلت آثار الحرب العالمية الثانية الى العراق فانها جعلته مع احتكاك بالعالم الخارجي وثقافته بشكل اكبر مما يجعله مهيناً لقبول فكرة التغير الاجتماعي حسبما او ضحت دراسة الراوي في المتن، واستمر الاجتماعي يسير وفق وتيرة معتدلة جل ومخطط لها منذ سبعينات القرن العشرين حتى مطلع الحصار الشامل على العراق وقد كانت له آثار سيئة كان من اشدها الظرف الاستثنائي الذي عاشه المجتمع العراقي في جميع انساق بنائه، فكانت الانتقالات الاجتماعية خلال هذا الظرف خارجة عن التخطيط ومقرونة بالذجاح في الكسب الاقتصادي مما اثر على معالم المثال القيمي التقليدي.

وان كان مثال الظرف الاستثنائي القيمي طارئاً كما هو معلوم، كما ان البنى الذهنية لا تكتمل ما بين عام او عامين حسب ما يقول اوكبرن، الا انها مما لا شك مما لا شك مثلت تغييراً على المستوى النفسي العراقي خاصة قد تعرض العراق فيه الى هجمة اعلامية منظمة قادتها الولايات المتحدة وحلفائها، ساعدتها كثيراً في اسقاط الدولة العراقية الحديثة في ٩/٤/٢٠٠٣.

اما على الصعيد النظري فان الاتجاه الحديث في النظرية الاجتماعية في توفيقه بين النظريات الكبرى والنظريات الصغرى كان اقرب في التفسير الاجتماعي لمجمل السلوك الاجتماعي لافراد المجتمع العراقي من أي من

النظريات الكبرى أو الصغرى و هو ما تضح من درجة تماثل الفرد كوحدة تحليل يعتمد من قبل النظريات الصغرى مع المثال القيمي كوحدة تحليل يعتمد في النظريات الكبرى. فكان الفرد ومثاله القيمي وحدة تحليل واحدة بالنسبة لما استخدم من تحليل بواسطة منهجا علم اجتماع المعرفة والمنهج الظاهراتي على الأقل حسب تصور الباحث (القابل للطعن علمياً).

من هنا كانت نظرية التشكيل البنائي الحديثة من حيث فكرتها العامة وان لم يكن بالضرورة من حيث تفضيلاتها الجزئية هي الأكثر قدرة على التفسير لأنطوائها على مفاهيم الدوافع اللاشعورية وتميزه بين الوعي الخطابي والوعي العملي مقابل ربطه العقل بالقوة بمعنى ان الفاعل لديه المقدرة على التأثير والأهم من ذلك ان الفاعل يكف عن كونه فاعلاً إذا افتقد المقدرة على التأثير^(١) وهذا بالضبط ما وجدناه في دور الفاعل العراقي في بناء مثاله القيمي التقليدي (القديم) حيث كانت له القدرة وكيف انتهى به الامر الى الانكفاء الى الاسرة حين افتقد القدرة على التأثير حسبما اوضحت نتائج الدراسة في زمن الاحتلال.

ومن جهة اخرى كان المنهجان منهج علم اجتماع المعرفة والمنهج الظاهراتي هما من انسب المناهج في رؤيتها للواقع الاجتماعي و عدم الاعتماد على تفسير نظري احادي بقدر ما هو تكاملي بين رؤيتين أو أكثر حسب تحديه أيان كريب وجدنز وسواهما.

ومن حيث تضمن المنهج الظاهراتي مفاهيم التطبيق والقصدية والشعور والوعي وهي مفاهيم تجعل تصوير الحقيقة اقرب الى الواقع فالفرد يعلق ذاته ويتقصد نوع الحقيقة بدوافع داخلية تتمثل بالشعور وخارجية تتمثل بالوعي.

(١) مصطفى خلف عبد الجواد، مصدر سابق، ص ٤٤٦.

وهذه المفاهيم كانت حاضرة في سلوك الفرد العراقي هو يبني تصوره القيمي عبر المراحل التاريخية التي مر بها العراق في العصر الحديث على سبيل المثال لا الحصر مفهوم الوعي الذي ادركه العراقي تجاه الاحتلال كان حافزاً لأنكفائه على أسرته مثلاً كما كان وعيه من قبل حاضراً على المشاركة في بناء مثاله القيمي وكل ذلك بفعل الاعداد الاجتماعي الذي يغرسه المجتمع في نفوس ابنائه.

والله من وراء القصد

المراجع

- قيس النوري، آفاق التغير الاجتماعي في النظرية والتنمية، جامعة بغداد، ١٩٩٠، ص ١٧.
- مصطفى خلف، عبد الجواد، دار المسيرة، عمان، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٤٤٤.
- ينظر قباري محمد اسماعيل، منهج البحث في علم الاجتماع، منشأة المعارف بالاسكندرية، دون تاريخ، ص ٥٧١-٥٩٤.
- بول لازرسفيلد، الاتجاهات الاساسية في علم الاجتماع، ترجمة د. احمد النكلاوي و د. عواطف فيصل بيارى، مكتبة نهضة الشرق- القاهرة، بدون تاريخ، ص ٩٤.
- مجموعة من الباحثين، دارسات مغربية، دار التنوير للطباعة والنشر، المغرب العربي، الدار البيضاء، الطبعة الاولى، ١٩٨٥، ص ١٤٨.
- ايان كريب، النظرية الاجتماعية من بار سنز الى هابر ماس، ترجمة: محمد حسين علوم، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٤٤ لسنة ١٩٩٩، ص ٢٣٠.
- احمد زايد، آفاق جديدة في نظرية علم الاجتماع - نظرية تشكيل البنية، المجلة الاجتماعية - القومية، يصدرها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، مجلد ٣٣، ع ٢١٤، سنة ١٩٦٩، ص ٦٩.
- اورفيل برم، التدشئة الاجتماعية بعد الطفولة، ت د. علي الزغل، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان - الاردن، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ١٦.
- د. قيس النوري، ملامح الواقع الذهني في مجتمعنا، مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، العدد ٢٥ سنة ١٩٧٩، ص ٤١١.
- علي عبد الامير، البيروقراطية والاعداد الاجتماعي في العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧، ص ١٣١.
- د. قيس النوري، آفاق التغير الاجتماعي والتنمية، مصدر سابق، ص ٦٧.
- ينظر: د. مصطفى الخشاب وآخرون، اصول علم الاجتماع، لجنة البيان العربي، بدون تاريخ.
- د. علي الوردي، الفرضيات الثلاث حول المجتمع العراقي، جريدة القادسية، العدد ١٨٦١، ٢٢ حزيران، ١٩٨٦.
- ينظر. د. علاء الدين جاسم البياتي، المرأة والتغير الاجتماعي في القطر العراقي، مجلة كلية الاداب، العدد ٢٥، شباط، ١٩٧٩.
- ينظر. د. علاء الدين جاسم البياتي، المرأة والتغير الاجتماعي في القطر العراقي، مصدر سابق.
- د. علي السلمي، مقدمة في العلوم السلوكية، دار المعارف بمصر، ط ١، ١٩٦٨، ص ٢٤٨.
- عبد الغني الدلي وآخرون، احوال العراق الاجتماعية والاقتصادية، مطبعة الزهراء، بغداد، ط ١، ١٩٥٣، ص ١٩٤.

- د. كمال مظهر احمد، الطبقة العاملة العراقية، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١، ص ٥٠.
- د. علاء الدين البياتي، المرأة والتغير الاجتماعي...، مصدر سابق، ص ٥٥٤.
- د. مسارع الراوي وآخرون، القيم الاجتماعية ومشكلات المجتمع العراقي، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٦٩، ص ٧٠.
- د. احسان محمد الحسن، التصنيع وتغيير المجتمع، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٦.
- عائدة سالم محمد الجنابي، المتغيرات الاجتماعية والثقافية لظاهرة الطلاق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٣، ص ١٣٩.
- اينوروزي، جدلية علم الاجتماع بين الرمز والاشارة، تأليف: د. قيس النوري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨، ص ٨٢-٨٣.
- د. علي السلمي، مقدمة في العلوم السلوكية، مصدر سابق، ص ٢٢٧.
- الفكر العربي المعاصر، مجلة العلوم الانسانية والحضارية، ع ٤١، سنة ١٩٨٦، مركز الأنماء القومي، بيروت؛ بيير بورديو، الراسمال الرمزي والطبقات الاجتماعية، ترجمة: عبد السلام عبد العالي، ص ٤١.
- عبد الله بن مسعود الطويرقي، مناهج البحث التفسيرية في دراسات الاتصال التنظيمي، كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، ع ١٨، سنة ١٩٨٥، ص ٣٦٢.